أخبار حُنَين

نسبه وشيء عنه

وهو حُنين بن بَلوَع الحِيرىُّ . وقد اُختلف فى نسبه ، فقيل: إنه من العِبَاديّين. وقيل : إنه من بنى الحارث بن كَعْب ، وقيل : إنه من قوم بقُوا من جَديس وطَسْم ، فنزلوا فى بنى الحارث بن كعب فعُدّوا فيهم . ويُكْنى أبا كعب . وكان شاعراً مغنيًّا فحلاً من فُحول المغنّين . وله صَنْعة فاضلة متقدِّمة . وكان يسكُن الحِيرةَ ويُكْرِى الجِمالَ ، وكان نصرانيًّا ، ومنزلُه بها . وهو القائل :

أنا حُنَينٌ ومنزلى النَّجَفُ ... وما نَدِيمى إلّا الفَتَى القَصِفُ[1]

أَقْرع بالكأسِ ثَغْرَ باطيةٍ[2] ... مُتْرَعةٍ تارةً وأَغْتَرف

من قهوةٍ باكَر التِّجارُ بها ... بيتَ يَهُودٍ قَرارُها الخَزَف

والعيشُ غَضٌّ ومنزلى خَصِبٌ ... لم تَغْذنى شِقْوَةٌ ولا عُنُف

مع هشام فى الحج

وذُكر أنه حَجّ هشامُ بن عبد الملك بن مَروان ، وعديلُه[3] الأَبرش الكَلْبى ، فوقف له حُنَين بظَهر الكوفة ومعه عُود وزامرٌ له ، وعليه قُلَنْسِيَة[4] طَويلة . فلما مرّ به هشامٌ عَرض له ، فقال : مَن هذا ؟ فقيل : حُنين . فأَمر به هشامٌ فحُمِل فى مَحْمِل على جَمل وعديلُه زامره ، وسِير به أمامه وهو يتغنّى :

أمِنْ سَلْمى بظَهْرِ الكُو ... فةِ الآياتُ والطَّلَلُ

يلوحُ كما تلوحُ على ... جُفون الصَّيقل[5] الخِلَل

---

(١) القصف : حليف اللهو والعب .
(٢) الباطية : إناء الخمر .
(٣) العديل : الذى يعادلك فى المحمل .
(٤) القلنسية : القلنسوة ، إن ضممت كسرت السين وقلبت الواو ياء .
(٥) الصيقل : شحاذ السيوف وجلاؤها . والخلل : جمع خلة ، وهى بطانة يغشى بها جفن السيف تنقش بالذهب وغيره .

فأمر له هشام بمائتى دينار ، وللزّامر بمائة .

وقيل بل غنّى :

صاحِ هل أبصرتَ بالخَبْـ ـتَيْن مِن أسماءَ نارَا
مَوْهِناً شُبَّت لعينَيْـ ـكَ ولم تُوقَدْ نَهارا
كتَلالِي البَرْق فى المُزْ ـنِ إذا البرقُ اُستَطارا
أذكرتْنى الوصلَ من سُعْـ ـدَى وأيّاماً قِصَارا

جوابه وقد سئل عن غلوه فى ثمن غنائه

وقيل لُحنين : أنت تُغنّى منذُ خمسين سنةً ، ما تركتَ لكريم مالاً ولا داراً ولا عَقاراً إلّا أتيتَ عليه ! قال : بأبى أنتم ! إنّما هى أنفاسى أَقْسِمها بين الناس ، أفتَلُومُوننى أن أُغْلِىَ بها الثّمن !

فى حضرة بشر مع الشعبى

وحكى الشَّعبىُّ رحمه الله قال : لمّا وَلى بِشْر بن مَرْوان الكوفة كنتُ على مَظالمه ، فأتيتُه عشيّةً وحاجُبه أَعْيَن — صاحب حمّام أَعْيَن — جَالسٌ ، فقلتُ له : أستأذنْ لى على الأمير . فقال : يا أبا عَمْرو ، هو على حال ما أظُنك تَصل إليه معها . فقلت : أَعْلِمْه ، وخَلاك ذَمٌّ ، فقد حدث أمرٌ لا بدَّ من إنهائه إليه — وكان لا يجلس بالعَشىّ — فقال : لا ، ولكن اكتُب حاجتَك فى رُقعة . فما لَبِث أن خرج التَّوقيع على ظهرها : ليس الشَّعبىّ ممن يُحْتشم منه ، فأْذَن له . فاذن لى . فدخلتُ فإذا بِشْر بن مروان عليه غِلالةٌ[1] رقيقة صَفْراء ، ومُلاءةٌ تقوم قياماً من شدّة الصِّقال ، وعلى رأسه إكليل من رَيْحان ، وعلى يمينه عِكْرِمة اُبن رِبْعىّ ، وعلى يساره خالد بن عتّاب[2] بن وَرْقاء ، وإذا بين يديه حُنَين ابن بَلُوَع ومعه عودُه ، فسلّمت . فردّ علىَّ السلامَ ورحّب وقرّب ، ثم قال : يا أبا عمرو ، لو كان غيرُك لم آذنْ له على هذه الحال . فقلت : أصلح الله الأمير ،

(١) الغلالة : شعار يلبس تحت الثوب .

(٢) فى الأصل : « خالد بن زياد بن ورقاء » . والتصويب من الطبرى .

لك عندى السترُ فى كل ما أرى منك والدخولُ معك فيما لا يجملُ والشكرُ على ما تُوليني . فقال : كذاك الظنُّ بك . ثم التفتَّ إلى حُنين وعودُه فى حجره وعليه قباء خُشْكشَوِى[1] ومُسْتُقَة[2] حمراء، وخُفّان مُكَعَّبان . فسلّم علىّ . فقلت : كيف أنت أبا كعب ؟ فقال : بخير . فقلت : أُحْزِق الزِّير[3] وأُرْخِ البَمّ[4] . ففعل وضرب. فأجاد. فقال بشر لأصحابه : تلومُوننى على أن آذَن له على كُل حال ! ثم أقبل علىّ فقال : يا أبا عمرو ، من أين وقع لك حَزْق الزِّير ؟ فقلت : ظننتُ أنّ الأمر هناك . فقال : إن الأمر كما ظننتَ هناك كُلّه ، فمن أين تعرف حُنَيناً ؟ فقلت : هذا بَطَّة أعراسِنا ، فكيف لا أعرفه. فضحك وغَنّى حُنَين فأجاد . فطرب وأمر له بجائزة . ثم ودّعتُه وقمتُ بعد أن ذكرتُ له ما جئتُ فيه . فأمر لى بعشرة آلاف درهم وعشرة أثواب . فقمتُ مع الخادم حتى قبضتُ ذلك منه .

نزوله بحنين متنكراً

وقيل : قَدم ابنُ سُريج الحيرةَ ومعه ثلثمائة دينار ، فأتَى بها منزلَ حُنين ، وذلك فى ولاية بِشْر بن مَروان ، وقال : أنا رجلٌ من أهل الحجاز من أهل مكّةَ بلغنى طِيبُ الحِيرة وجَوْدة خَمرها وحُسن غنائك فى هذا الشعر :

حنَّتْنى حانياتُ الدّهر حتَّى ... كأنِّى خاتل[5] يَدْنو لصَيْدِ
قريبُ الخطْو يَحْسَب من رآنى ... — ولستُ مُقيَّداً — أنِّى بقَيْدِ

فخرجتُ بهذه الدنانير لأُنفقها معك وعندك ، ونتعاشر حتى تَنْفد وأنصرف إلى منزلى . فسأله حُنين عن اسمه ونَسبه . فغيّرهما وادّعى ولاءَ بنى مخزوم . فأخذ حُنين المالَ منه وقال : هذا موفَّر عليك ، ولك عندنا كُل ما يَحتاج إليه مثلُك

(١) خشكشوى : فارسية ، ومعناها : قميص خشن .
(٢) المستقة : الفرو الطويل الكم . فارسى .
(٣) احزق : اشدد . والزير : أرفع أوتار العود .
(٤) البم : أغلظ أوتار العود .
(٥) فى الأصل : « حابل » مكان « خاتل » .

ما نَشِطْتَ للمُقام عندنا ، فإذا دعتْك نفسُك إلى بلدك جَهّزناك إليه ، ورَددنا عليك مالَك ، وأَخلفنا ما أنفقته عليك إلى أن جئتَنا . وأَسكنه داراً كان يَنفرد فيها . فمكث عند حُنين شَهْرين لا يَعلم حُنين ولا أحد من أهله أنه يُغنِّى . فانصرف حُنين من دار بِشْر بن مروان فى يوم صائف مع قيام الظَّهيرة ، فصار إلى باب الدار التى كان أَنزل ابنَ سُريج فيها ، فوجده مُغلقاً ، فارتاب بذلك ، ودقّ الباب فلم يَفْتح له ولم يُكلِّمه أحد ، فصار إلى منازل الحَرَم ، فلم يجدْ فيها ابنته ولا جَواريها ، ورأى ما بين الدّار التى فيها الحرم ودار ابن سُريج مَفْتوحاً ، فاُنتضى سيفَه ودخل الدار ليقتُل ابنته . فلما دخل رأى ابنته وجواريَها وقوفاً على باب السِّرْداب ، وهنّ يومئْن إليه بالسُّكوت وتَخْفيف الوطء ، فلم يلتفتْ إلى إشارتهنّ ، لمَا تداخله ، إلى أن سمع ترنُّم ابن سُريج فى الصوت المنسوب إليه ، وهو :

فتركْتُه جَزَر السِّباع[1] يَنُشْنَه ما بين قُلّة رأسه والمِعْصَمِ

فألقى السيفَ من يده وصاح به ، وقد عَرفه من غير أن يكون قد رآه ، ولكن بالنَّعت والحِذْق : أبا يحيى ! جُعلت فداك ! أتيْتَنا بثلثمائة دينار لتُنفقها عندنا فى جيرتنا ، فوحقِّ المسيح لاخرجتَ منها إلا ومعك ثلثمائة دينار ، وثلثمائة دينار ، وثلثمائة دينار ، سوى ما جئت به معك ! ثم دخل إليه فعانَقه ورحّب به ، ولقِيه بخلاف ما كان يَلْقاه به ، وسأله عن هذا الصوت . فأخبره أنه صاغَه فى ذلك الوقت . فصار معه إلى بشر بن مروان . فوصله بعشرة آلاف دِرهم أول مرة ، ثم وصله بعد ذلك بمثلها . فلما أراد الخروج ردّ عليه حُنين ما لَه وجهّزه ووصله بمقدار نفقته التى أنفقها من مكة إلى الحيرة ، ورجع ابنُ سُريج إلى أهله وقد أَخذ جميعُ من كان فى دار حُنين منه هذا الصوت .

قدومه على مغنى الحجاز وموته

وقيل : كان المغنُّون فى عصر حُنين أربعة : هو وحدَه بالعراق ، وثلاثة بالحِجاز ،

(١) يقال : تركه جزر السباع : وذلك إذا قطعه إرباً إرباً وصيره معرضاً لسباع الطير . وينشنه : يتناولنه .

هم : ابن سُريج ، والغَريض ، ومَعبد . وكان يَبْلغهم أن حُنيناً قد غنّى فى هذا الشعر :

هلّا بكَيْتَ على الشّباب الذّاهِب ... وكَفَفْتَ عن ذَمِّ المَشِيب الآئِبِ
هذا ورُبَّ مُسوِّفَين[1] سقيتُهم ... من خَمر بابلَ لذةً للشارب
بَكَرُوا علىّ بسُحْرة فَصَبَحْتُهم ... من ذاتِ كُوبٍ مثلَ قَعْبِ الحالب
بزُجاجةٍ ملء اليــدَيْن كأنّها ... قِنْديلُ فِصْح[2] فى كَنِيسةِ راهِب

فاجتمعوا فتذاكروا أمر حُنين ، وقالوا : ما فى الدنيا أهل صنعة شرٌّ منّا ! لنا أخٌ بالعراق ونحن بالحجاز لا نَزوره ولا نَستزيره. فكتبوا إليه ووجّهوا إليه بنَفَقة وكتبوا يقولون : نحن ثلاثة وأنت وحدك ، فأنت أولَى بزيارتنا . فشَخص إليهم . فلما كان على مَرْحلة من المدينة بَلَغهم خَبرُه ، فخرجوا يتلقّونه . فلم يُرَ يومٌ كان أكثرَ حَشْداً ولا جَمْعاً من يومئذ . ودخلوا ، فلما صاروا فى بعض الطريق قال لهم مَعبد : صِيرُوا إلىّ . فقال له ابنُ سُريج : إن كان لك من الشّرف والمروءة مثلُ ما لَمَوْلاتى سُكينة بنت الحُسين عَطَفْنا إليك . فقال : مالى من ذلك شىء . وعَدلوا إلى منزل سُكينة ، فأذنتْ للناس إذناً عامًّا . فغصَّت الدارُ بهم ، وصَعِدوا فوق السطح ، وأمرت لهم بالأَطعمة . فأكلوا . ثم سألوا حُنيناً أن يُغنّيهم صوتَه الذى أوله :

* هلّا بكيتَ على الشباب الذاهِب *

فغنّاهم إياه بعد أن قال لهم : أبدءوا أنتم . فقالوا : ما كنّا لنتقدمَ قبلك حتى نسمع هذا الصوت . فغنّاهم إياه . وكان من أحسن الناس صوتاً . فازدحم الناسُ على السَّطح وكثرُوا ليسمعوا . فسَقط الرِّواق على من تحته . فسلموا جميعاً وأُخرجوا أصحّاء ، ومات حُنين تحت الهدم . فقالت سُكينة : لقد كَدّر علينا حُنين سُرورنا ! انتظرناه مدةً طويلة كأنّا كنّا نَسوقه إلى مَنيّته . وكان عُمره مائة سنة وسَبْع سنين .

(١) المسوف : الصبور. (٢) الفصح : من أعياد النصارى .

أخبار الغريض

اسمه وكنيته وولاؤه

واسمه عَبد الملك . وكُنيته أبو زيد . وقيل : أبو مَروان . وهو مولى العَبلات . وكان مولَّداً من مولَّدى البَربر .

ومَوْلياته : الثريّا صاحبة عُمر بن أبى ربيعة ، وأخواتها الرُّضيّا ، وقُرَيبة ، وأُم عثمان ، بنات علىّ بن عبد الله بن الحارث بن أُمية الأصغر بن عبد شمس ابن عبد مناف .

لقبه

وإنما لُقِّب الغريض لأنه كان طرىّ الوَجه غضَّ الشباب حَسَن المنظر . والغريض : الطَّرىّ من كل شىء . وقيل : سمى بالإغريض ، وهو الجُمّار . وثَقُل ذلك على الأَلسنة فحُذفت الألف منه ، وقيل : الغريض .

حديث تعلمه الغناء

وكان يَضْرب بالعُود وينقُر بالدُّفّ ويُوقع بالقَضيب . وكان قبل أن يُغنِّىَ خيّاطاً . وأخذ الغناء عن ابن سُريج فى أول الأمر . فلما رأى ابن سُريج حذقَه وطَبْعه وظَرْفه وحلاوة مَنْطقه خَشِى أن يأخذ غناءه فيغلبَه عليه عند الناس ، ويفوقَه بحُسن وجهه ، فحسده . فاعتلّ عليه وشكاه إلى مَوْلياته ، وهُنّ كُنّ دفعنه إليه ليعلّمه الغناء . وجعل يتجنّى عليه ثم اطّرحه . وشكا ذلك إلى مَوْلياته وعرّفهن غرضَ ابن سُريج فى تنحيته إيّاه عن نفسه ، وأنه حَسده على تقدُّمه . فقُلْن له : هل لك أن نُسمعك نَوْحَنا على قَتلانا فتأخذَه وتُغنى عليه ؟ قال : نعم ، فافعلْنَ ، فأَسمعَه المراثى ، فاحتذاها . وخَرّج غناءه عليها كالمراثى . وكان ينُوح مع ذلك فيدخل المآتم وتُضْرب دونه الحُجب ، ثم ينُوح فيَفتن كلَّ من يَسمعه . ولما كثُر غناؤه اشتهاه الناس وعدلُوا إليه ، لما كان فيه من الشَّجا[1] ، فكان لا يُغنِّى ابنُ سُرَيج صوتاً إلّا عارضه فيه

(١) الشجا : الحزن .

فغنّى فيه لحناً آخر . فلما رأى ابنُ سُرَيج موقع الغَريض اشتدّ عليه. فغنّى الأرمالَ والأهزاج ، فاشتهاها الناسُ ! فقال له الغريض : يا أبا يحيى . قصّرت الغناء وحدفتَه . فقال : نعم يا مُخنَّث . حيث جعلتَ تنوح على أبيك وأُمك .

خبر نفيه وغيره من المغنين عن مكة

وذُكر أن أميراً من أمراء مكة أمر بإخراج المُغنّين بالحَرَم . فاجتمع مَعبدٌ وابنُ سريج والغريض وقالوا : هلمّ نَبْكِ على أهل مكة . فلمّا كان فى الليلة التى عَزم بهم على النَّفى فى غَدِها، اجتمعوا على أبى قُبيس، وكان معبد قد زارهم ، فبدأ معبد فتغنّى :

أترْبَيّ من أعلَى مَعَدّ هُديتُما ... أجِدًّا البُكَا إن التفرُّقَ باكرُ
فما مُكْثُنا دام الجميلُ عليكما ... بَثْهلان[1] إلا أنْ تُزَمّ الأباعر

فتأوه أهل مكة وأنّوا ، واندفع الغريض فغنّى :

أيها الرَّائح المُجدّ ابتكارا ... قد قضى من تِهامة الأَوْطارَا
مَن يكن قَلْبُه الغداةَ خَليًّا ... ففؤادِى بالخَيْف أمسى مُعَارا
ليت ذا الحجّ[2] كان حتماً علينا ... كلَّ شهرين حِجّةً واعتمارا

فارتفع البكاء والنَّحيب . واندفع ابنُ سُريج فتغنّى :

جَدِّدى الوصلَ يا قُريبُ وجُودى ... لمُحبٍّ فراقُه قد ألمّا
ليس بين الحياة والموت إلّا ... أن يردُّوا جمالَهم فتُزَمّا

فارتفع الصُّراخ من الدُّور بالوَيْل والحَرب[3]. فاجتمع الناس إلى الأمير واستعفوه من نَفْيهم ، فأعفاهم .

طرب ابن جعفر بغناء جارية له

وذُكر أنّ جاريةَ علىّ بن جَعفر غنّته ذات يوم :

ليس بين الرَّحيل والبَيْن إلّا ... أنْ يَردُّوا جمالهم فتُزَمّا

(١) ثهلان : جبل بنجد . وفى الأصل : « بنجران » .
(٢) فى الأصل : « ليت ذا الدهر » . (٣) الحرب : ما يصيب من مكروه .

فطرِب علىّ بن جعفر وصاح : سُبحان الله العَظيم ! ألَا يُوكَون[1] قِرْبةً ! ألَا يشُدُّون مَحْمِلا ! ألَا يُعلِّقون سُفْرة[2] ! ألَا يُسلِّمون على جارٍ ! هذه والله العجلة !

تحاكم هو وابن سريج إلى سكينة فى الحج

وذُكر أنّ سُكينةَ بنت الحُسين عليه السلام حجّت، فدخل إليها ابنُ سُريج والغَريض ، وقد استعار ابنُ سريج حُلّةً لامرأة من قُريش فلَبِسها . فقال لها ابنُ سريج : يا سيدتى ، إنّى صنعتُ صوتاً وحسّنتُه وتنوقْت فيه وخَبأته لك فى حَريرة فى دُرْج مملوءٍ مِسْكاً، فنازعنيه هذا الفاسقُ — يعنى الغريض — فأردنا أن نتحاكَم إليك فيه ، فأيّنا قدَّمتِه تقدَّم . قالت : هاتِه . فغنّاها :

عُوجِى علينا ربةَ الهَوْدج إنّك إلّا تفعلى تَحْرِجِى

فقالت : هاته أنت يا غَريض . فغنّاها إياه . فقالت لابن سُريج : أعِدْه . فأعاده وقالت : يا غريض ، أعِدْه . فأعاده . فقالت : ما أُشبهكما إلا باللُّؤلؤ والياقوت فى أعناق الجوارى الحِسَان ، لا يُدْرَى أيهما أحسن .

صلة عائشة بنت طلحة له فى الحج لصوت غناه إياها

وذُكر أنه حجّت عائشةُ بنتُ طلحة بن عُبيد الله ، فجاءتْها الثريّا وأخواتها ونساء أهل مكة القرشيّات وغيرهنّ ، وكان الغريض ممّن جاء . فدخل النّسوة عليها. فأمرتْهن بكُسوة وأَلْطاف[3] كانت قد اتّخذتْها لمن جاءها . فجعلت تخرج كُل واحدة ومعها جاريتها ومعها ما أمرت لها به عائشةُ بنتُ طلحة ، والغريض بالباب. حتى خرج مَوْلياتُه مع جواريهنّ بالخِلع والأَلْطاف . فقال الغريضُ : فأين نَصيبى من عائشة ؟ فقلن له : أغفلناك وذهبتَ عن قُلوبنا . فقال : ما أنا ببارح عن بابها أو آخُذَ بحَظى منها ، فإنها كريمةٌ بنت كِرام . وأندفع يُغنّى بشعر جميل :

(١) أوكى القربة : شدها بالوكاء ، وهو الرباط .

(٢) السفرة : طعام المسافر . هذا أصله . والمراد به : جلد مستدير يحمل فيه الطعام .

(٣) الألطاف : ما ألطفت به .

تذكّرتُ ليلَى والفـؤاد عَميد وشَطَّت نَواها والمزارُ بعيـدُ

فقالت : ويلـكم ! هذا مَوْلى العَبَلات بالباب يذكّر بنفسه ، هاتُوه . فدخل . فلمّا رأتْه ضحكت وقالت : لم أعلم مكانَك . ثم دعتْ له بأشـياء أمرت له بها ، ثم قالت له : إن غنيتَنى صوتاً فى نفسى فلك كذا وكذا — لشىء سمَّته — فغنّاها فى شعر كُثيِّر :

ومازلتُ من لَيْلى لَدُن طَرّ شاربى إلى اليوم أُخْفِى حُبَّها وأُداجنُ
وأحمل فى ليلى لقومٍ ضَغينةً وتُحمل فى لَيْلى علىّ الضغـائن

فقالت له : ما عَدوْت ما فى نفسى ، ووصلتْه وأجزلت إليه .

سبب طرب عائشة بهذا الصوت

وكان السبب الحامل لعائشة على ذلك ما حَكَى الشعبىُّ قال : دخلت المسجد فإذا أنا بمُصْعب بن الزُّبير جالس والناسُ عنده ، فسلّمت ثم ذهبتُ لأنصرف . فقال لى : أُدْن . فدنوتُ حتى وضعتُ يدى على مَرافقـه[1] . ثم قال : إذا قمتُ فأتْبعنى . فجلس قليلاً ثم نهض فتوجّه نحو دار موسى[2] بن طلحة ، فتبعتُه . فلمّا طَعَن فى الدار ٱلتفتَ إلىّ فقال : ادخُلْ ، فدخلتُ معه . ومضى نحو حُجرته وتبعتُه . فالتفتَ إلىّ وقال : ادخل . فدخلتُ معه . فإذا حجَلة[3] . وإنها لأول حَجَلة رأيتها لأمير ، فقمتُ ودَخل الحَجَلة . فسمعتُ حركة ، وكرهتُ الجلوسَ ولم يأمرنى بالٱنصراف . وإذا جارية قد خرجتْ وقالت : يا شعبىّ ، إنّ الأمير يأمرك أن تجلس . فجلستُ على وِسادة ، ورُفع سَجْف الحَجلة ، وإذا أنا بمُصْعب ابن الزُّبير . ورُفع السِّجف الآخر فإذا أنا بعائشة بنت طلحة . فلم أر زوجاً قطُّ كان أجملَ منهما : مُصعب وعائشة . فقال مصعب . يا شَعبىّ ، هل تعرف هذه ؟ قلت :

(١) المرافق : المخدات ؛ الواحدة : مرفق ومرفقة . (٢) فى الأصل : « دار أبى موسى » .
(٣) الحجلة : مثل القبة .

نعم ، أصلح الله الأمير . قال : ومن هى ؟ قلتُ : سيدة نساء العالمين عائشة بنتُ طلحة . قال : لا ، ولـكن هذه لَيْلى التى يقول فيها الشاعر :

* وما زلتُ من ليلى لدُن طرّشار بى *

وذكر البيتين . ثم قال : إذا شئتَ فقُم . فلما كان العشىّ رُحْتُ فإذا هو جالس على سَريره فى المسجد ، فسلّمت . فلمّا رآنى قال : أُدْن . فدنوتُ حتى وضعتُ يدى على مَرافقه . فأصغى إلىّ[1] فقال : هل رأيت مثل ذلك لإنسانٍ قطّ ؟ قلت: لا والله . قال : أفلا تَدرى لِم أَدْخلناك ؟ قلت : لا . قال : لتُحدّثَ بما رأيت . ثم التفت إلى عبد الله بن أبى فَرْوة فقال : أَعْطِه عشرة آلاف درهم وثلاثين ثوباً. فما أُنصرف أحدٌ يومئذ بمثل ما أُنصرفتُ به : بعشرة آلاف درهم، و بمثل كارةِ[2] القَصّار ثياباً ، و بنظرة من عائشة بنت طلحة .

شىء عن عائشة بنت طلحة

وكانت عائشة هذه عند عبد الله بن عبد الرحمن بن أبى بكر الصدّيق ، وكان أبا عُذْرتها[3] . ثم هلك فتزوّجها مُصعب بن الزُّبير . فقُتل عنها . ثم تزوّجها عُمر ابن عُبيدالله بن مَعمر التَّيمى، فبَنى بها بالحيرة ، فمُهّدت له يومَ عُرْسه فُرُش لم يُرَ مثلُها : سبع أذرع فى عرض أربع . فأُنصرف تلك الليلة عن سَبْع مَرّات . فلقيتْه مولاةٌ لها حين أصبح فقالت : يا أبا حفص ، كَمُلتَ فى كل شىء حتى فى هذا ! فهلك عنها . ولما مات ناحتْ عليه وهى قائمة ولم تنُح على أحد منهم قائمةً غيره وكانت العرب إذا ناحت المرأة على زَوْجها قائمة عُلم أنها لا تُريد أن تتزوّج بعده . فقيل لها : يا عائشة ، ما صنعتِ هذا بأحدٍ من أزواجك ! قالت : إنه كان فيه خِلال ثلاث لم تكن فى أحـدٍ منهم : كان سيّد بنى تَيْم ، وكان أقربَ القوم بى قرابة ، وأردتُ ألّا أتزوّجَ بعده .

(١) أصغى إلى : أمال رأسه إلى .

(٢) كارة القصار : ما يجمعه ويكوره من الثياب فى ثوب يحمله ، فيكون بعضها فوق بعض .

(٣) أبو عذرتها : أى أول من تزجها .

غنـــاؤه يزيد ابن عبـــد الملك فى مكة

وقيل :

قدم يزيدُ بن عبـد الملك بن مَروان إلى مكة : فبعث إلى الغريض سرًّا فأتاه فغنّاه بشعر كُثيِّر :

وإنى لأَرْعَى قَومها من جَلالها ... وإن أَظهروا غِشًّا نَصحتُ لهم جَهْدِى
ولو حاربُوا قَوْمى لَكنتُ لقومها ... صديقاً ولم أحمل على قومها حِقْدى

فأشير إلى الغريض : أن اُسكُت . وفَطِن يزيد فقال : دعُوا أبا يزيد حتى يُغنِّينى بما يُريد . فأعاد عليه الصوتَ مِراراً . ثم قال : زِدْنى ممّا عندك . فغنّاه بشعر عَمرو بن شأس الأسدىّ :

فوانَدَمى على الشباب ووا ندمْ ... ندمتُ وبان اليومَ منّى بغير ذَمّْ
أرادتْ عِرَاراً[1] بالهَوَان ومن يُرِدْ ... عِرَاراً لعَمْرى بالهـوَان فقد ظَلَم

فطرب يزيدُ وأمر له بجائزة سنيّة .

حديث بيّ كثير

ثم أتبع أبو الفرج هـذه الحكاية بأن ذكر السبب الذى من أجله أُشير إلى الغريض أن يسكت حين غنّاه بشعر كُثيِّر ، قال : كان عبـد الملك بن مَروان من أشدِّ الناس حُبًّا لعاتكة بنت يزيد بن مُعاية بن أبى سُفيان ، وهى امرأته . وهى أُم ابنه يزيد بن عبد الملك . وأُمها أم كُلثوم بنت عبد الله بن عامر بن كُريز . فغضبت مرةً على عبد الملك ، وكان بينهما بابٌ ، فحجبتْه وأغلقتْ ذلك الباب . وشق غَضَبها على عبد الملك وشكاها إلى رجل من خاصّته ، يقال له : عُمرُ بن بِلال الأسدى : فقال له : مالى عندك إن رضيتْ ؟ قال : حُكمك . فأتى عمر بابها وجعل يتباكَى . وأرسل إليها بالسلام . فخرجتْ إليه حاضنتُها ومواليها وجَواريها وقُلْن : مالك ؟ قال : فَزِعتُ إلى عاتكة ورجوتُها ، فقد علمتْ مكانِى مِن أمير المؤمنين مُعاوية

(١) عرار : هو ابن عمرو بن شأس .

ومن أبيها بعده . قُلْن : ومالك ؟ قال : أبنان لم يكُن لى غيرهما قَتل أحدُهما صاحبَه ، فقال أمير المؤمنين : أنا قاتلُ الآخر به . فقلتُ : أنا الولىّ وقد عفوتُ . فقال : لا أُعوِّدُ الناسَ هذه العادةَ . فرجوتُ أن يُنْجِىَ الله ابنى هذا على يدها . فدخَلْنَ إليها فذكَرْن ذلك لها . فقالت : وكيف أَصنع مع غَضبى عليه وما أظهرتُ له ؟ قُلْن : إذًا واللهِ يُقْتَل . فلم يزَلْن حتى دعتْ بثيابها فأَجْمَرتْها[1] ، ثم خَرجت نحوَ الباب . فأقبل حُدَيج الخَصىّ ، فقال : يا أمير المُؤمنين ، هذه عاتكةُ قد أَقْبلت . قال : ويلك ! ما تقول ؟ قال : قد واللهِ طلعتْ . فأَقبلت وسلّمت . فلم يَرُدّ عليها . فقالت : أَمَا واللهِ لولا عُمر ما جئتُ . إن أحـد ابنيه تَعدَّى على الآخر فقتَله ، فأردتَ قَتْلَ الآخر ، وهو الولىّ ، وقد عفا . قال : إنّى أكره أن أُعوِّد الناسَ هذه العادةَ . قالت : أَنشُدك الله يا أمير المُؤمنين ، فقد عَرفتَ مكانَه من أمير المُؤمنين مُعاوية ومن أمير المُؤمنين يَزيد ، وهو ببابى . فلم تَزَلْ به حتى أَخـذت برجْلِه فقبَّلتها . فقال : هولك . ولم يَبْرحا حتى اصطلحا . ثم راح عمر بن بلال إلى عبد الملك فقال : ياأمير المؤمنين ، كيف رأيت ؟ قال : رأينا أثرَك ، فهات حاجتك . قال : مَزْرعة بعُدّتها وما فيها ، وألف دينار ، وفرائض لولدى وأهل بيتى وعيالى . قال : ذلك لك . وأندفع عبدُ الملك يتمثّل بشعر كُثيِّر :

* وإنى لأرعى قومها من جَلالهـا *

البيتين . فعلمتْ عاتكةُ ما أراد . فلمّـا غنّى الغريضُ يزيدَ بن عبد الملك بهذا الشّعر كرهتْ مواليه ؛ إذ كان عبدُ الملك تمثّل به فى أُمه ، ولم يكرهْه يزيدُ وقال : لو قيل هـذا الشّعر فيها ثم غُنّى به ما كان عَيْباً ، فكيف وإنما هو مَثَل تَمثّل به أميرُ المؤمنين فى أجمل العالَمين .

(١) أجمرتها : بخرتها .

حديث بيتى ابن شأس

ثم حكى أبو الفرج السَّبب الذى لأجله غنَّى الغريضُ ثانياً بشعر عَمرو بن شأس الأسدىّ ، وحكاية عِرَار بن عمرو ، فقال : إن ابن الأشعث لما قُتل بعث الحجّاجُ ابن يوسف برأسه إلى عبد الملك بن مَروان مع عِرار بن عمرو بن شأس . فلما وَرد به وأوْصل كتابَ الحجّاج ، جعل عبدُ الملك يقرؤه ، وكلّما شكّ فى شىء سأل عِراراً عنه . فأخبره . فعَجب عبدُ الملك من بيانه وفصاحته ، فقال متمثّلا :

وإنّ عراراً إن يكُن غير واضحٍ فإنى أُحب الجونَ ذا المنكِب[1] العَمَمْ

فضحك عرار من قوله ضَحِكا غاظ عبدَ الملك . فقال : مما ضحكت ؟ ويحك ! فقال : أتعرف عِراراً يا أمير المُؤمنين الذى قيل فيه هذا الشعر ؟ قال : لا . قال : أنا واللهِ هو . فضحك عبدُ الملك وقال : حظٌّ وافَق كلْمة . ثم أحسن جائزته وسَرَّحه .

وإنما أراد الغريضُ أن يُغنِّى يزيدَ بمتمثِّلات أبيه عبد الملك فى الأمور العِظام ، فلما تبيّن كَراهةَ مواليه غِناءه فيما تَمثّل به فى عاتكة أراد أن يُعقِبه بما تَمثّل به فى فَتْح عظيم كان لعبد الملك ، فغنّاه بشعر عَمرو بن شأس فى عرار .

خروج معبد إليه وسماعه غناءه

وحكى مَعبد قال : خرجتُ إلى مكة فى طلب لقاء الغريض ، وقد بلغنى حُسن غنائه فى لحن :

وماأَنْسَ مِ الأشياء لاأَنْسَ شادناً بمكة مَكحولًا أسيلاً مدامعُهْ

وقد كان بلغنى أنه أول لحن صَنعه ، وأن الجِنّ نَهتْه أن يُغنِّيه ، لأنه فَتن طائفةً منهم ، فانتقلوا عن مكّة من أجل حُسْنه . فلمّا قدمتُ مكةَ سألت عنه فدُلِلتُ على منزله . فأتيته فقرعتُ الباب . فما كلّمنى أحد . فسألتُ بعضَ الجيران فقلت : هل فى الدار أحد ؟ فقالوا لى : نَعم ، فيها الغَريضُ . فقلت : إنّى قد أكثرتُ

(١) منكب عمم : طويل .

دقّ الباب فما أجابنى أحد . قالوا : إنّ الغَريض هناك. فرجعتُ فدققتُ الباب فلم يُجبْنى أحد .فقلت: إنْ نَفَعنى غِنائى يوماً نفعنى اليوم.فاندفعتُ فغنّيت لَحَنى فى شعر جميل:

عَلقتُ الهوى منها وليداً فلم يزلْ إلى اليـوم يَنْمى حبُّها ويزيدُ

فوالله ما سمعتُ حركةَ الباب ، فقلْتُ : بَطل سِحْرى[1] وضاع سفرى وجئتُ أطلُب ما هو عسيرٌ علىّ ، واُحتقرتُ نفسى وقلتُ : لم يتوهّمنى[2] لضَعْف غنائى عنده . فما شَعرتُ إلّا بصائح يَصيح : يا مَعْبدُ المُغنّى ، افْهم وتَلَقَّ عنّى شِعْر جَميل الذى تُغنّى فيه يا شَقِىّ البَخْت ، وغنّى :

وما أَنْسَ مِ الأشياء لاأَنْس قولَها وقد قَرَّبت نِضْوى[3] أَمِصْر تُريدُ
ولا قولَها لولا العيـونُ التى تَرى أتيتُك فاعذِرْنى فَدتْك جُـدود
خليلىّ ما أُخفى من الوجد باطِن ودَمعى بما قلتُ الغـــداةَ شَهيد
يقولون جَاهِـد يا جميلُ بغزوة وأىّ جِهـادٍ غيرهنّ أُريد
لكلّ حديثٍ عندهنّ بشاشةٌ وكلُّ قتيـل بينهنّ شَهيد

قال : فلقد سمعتُ شيئاً لم أسمع أحسَن منه ، وقَصّر[4] إلىّ نفسى ، وعلمتُ فضيلته علىّ بما أحسّ من نفسه ، وقلت : إنّه لحرِىٌّ بالاُستتار من الناس ، تنزيهاً لنفسه وتعظيماً لقدره ، وإن مِثْله لا يستحقّ الابتذال ، ولا أن تَتداوله الرجال . فأردتُ الاُنصراف إلى المدينة راجعاً ، فلما كنتُ غيرَ بعيد إذا بصائح يَصيح بى : يا معبد ، انظُرْ[5] أكلّمك. فرجعتُ . فقال لى: إنّ الغريض يَدْعوك . فأسرعتُ فرحاً ، فدنوتُ من الباب. فقال لى : أتُحب الدُّخول ؟ فقلت : وهل إلى ذلك مِن سَبيل ؟ فقَرع الباب ففُتح . فقال لى : اُدخُل ولا تُطِل الجلوسَ . فدخلتُ ، فإذا شمس طالعةٌ فى بيت، فسلّمتُ . فَردَّ السلام . فقال : اُجلس . فجلستُ ، فإذا أَنبل

(١) بطل سحرى ، أى ضاعت حيلتى وخاب مكرى. والذى فى الأصل : « بطل شعرى » .
(٢) لم يتوهمنى : لم يتبينى ولم يعرفنى . (٣) النضو : المهزول من الإبل .
(٤) قصر : صغر. (٥) انظر : انتظر.

الناس وجهاً وخَلْقا وخُلقا . فقال:يا معبد ، كيف طرأتَ[١] إلى مكة ؟ قلتُ : جُعلت فداك ! فكيف عرفتَنى ؟ قال : بصوتك . قلتُ : وكيف وأنت لم تَسمعه قط ؟ قال : لما غنّيتَه عرفتكَ به وقلت : إن كان مَعْبد فى الدُّنيا فهذا . فقلتُ : جُعلت فِداك ! فكيف أَجبتنى بقولك :

* وما أَنس م الأَشياء لا أَنْس قولَها *

فقال : علمتُ أنك تُريد أن أُسمعك صوتى :

* وما أَنْس مِ الأَشياء لا أَنْس شادناً *

ولم يكن إلى ذلك سبيل ، لأنه صوتٌ قد نُهيت أن أُغنِّيه ، فغنَّيتُك هذا الصوت جواباً لما سألتَ . فقلتُ : والله ما عدوتَ ما أردتُ ، فهل لك حاجةٌ ؟ فقال لى : ياأبا عبّاد ، لولا مَلالةُ الحديث وثِقل إطالة الجلوس لاستكثرتُ منك ، فأُعذِرْ .فخرجتُ من عنده ، وإنه لأَجلُّ الناس عندى ، ورجعتُ إلى المدينة فتحدّثتُ بحديثه وعجبتُ من فِطْنته وقِيافته . فما رأيتُ إنساناً إلّا وهو أجلُّ منه فى نَفْسى. وذكرتُ جَميلاً و بُثَينة فقلتُ : ليتنى أصبتُ إنساناً يُحدّثنى بقصّة جَميل وخبر[٢] هذا الشعر،فأكونَ قد أخذت بفَضيلة الأَمر كُلِّه فى الغِناء والشِّعر .فسألتُ عن ذلك فإذا الحديثُ مَشهور . وقيل لى : إن أردتَ أن تُخبَّر بمشاهدته فأْتِ بنى حَنْظلة ، فإن فيهم شيخاً منهم يقال له فلان ، يُخبرك الخبر بمُشاهدته . فأتيتُ الشيخَ فسألتُه . فقال : نعم ، بينا أنا فى إبلى فى الرَّبيع إذا أنا برجل مُنْطوٍ على رَحْله[٣] كأنه جانٌّ، فسلَّم علىّ ثم قال : ممن أنت ياعبدَالله ؟قلت : أحدُ بنى حَنْظلة . قال : فنَسبنى[٤] ، فانتسبتُ حتى بلغتُ فَخذِى الذى أنا منه .ثم سألنى عن بنى عُذْرة أين نَزلوا . فقلت : هل تَرى ذلك السَّفح فإنهم نَزلوا من ورائه . فقال :

(١) طرأت : أقبلت إلى مكة فجأة .و الذى فى الأصل : «تطرقت» . (٢) فى الأصل : « بقصة جميل وقوله هذا الشعر ، وليتنى كنت عرفت خبر ... الخ » .

(٣) فى الأصل : « راحلته » . (٤) نسبنى : سألنى أن أنتسب .

يا أخا بنى حَنظلة ، هل لك فى خَير تَصْطنعه إلىّ ؟ فوالله لو أعطيْتنى ما أصبحتَ تَسوق من هذه الإبل ما كنتُ بأشكر منّي لك عليه . فقلت : نعم ، ومَن أنت أولاً ؟ قال : لا تَسألنى من أنا ولا أُخبرك ، غير أنى رجل بينى و بين هؤلاء القوم ما يكون بين بنى العمّ ، فإن رأيتَ أن تأتيهم فإنك تجد القومَ فى مجلسهم فَتَنْشُدهم بَكْرةً أدماء تَجرّ خُفَّيْها غُفْلاً من السِّمة ، فإن ذكروا لك شيئاً فذاك ، و إلّا استأذنتَهم فى البُيوت وقلت : إنّ المرأة والصبىّ قد يَرَيان ما لا يَرى الرِّجال ، فتَنْشُدهم ولا تَدَعْ أحداً تُصيبه عينُك ولا بيتاً من بيوتهم إلا نَشَدتَها فيه . فأتيتُ القومَ فإذا هم على جَزور يَقْتسمونها ، فسلّمتُ وانتسبتُ لهم ونَشدتهم ضالّتى . فلم يذكُروا لى شيئاً ، فاستأذنتُهم فى البيوت وقلت : إنّ الصبىّ والمرأة يَريان مالا يَرى الرجال . فأَذِنوا . فأتيتُ أقصاها بيتاً ثم أستقريتُها بيتاً بيتاً أَنشُدهم ، فلا يذكُرون شيئاً . حتى إذا انتصف النهار وآذانى حَرُّ الشَّمس وعَطِشْتُ وفَرغتُ من البيوت وذهبتُ لأنصرف ، حانتْ منّى ألتفاتةٌ ،فإذا بثلاثة أبيات ، فقلت : ما عند هؤلاء إلّا ما عند غيرهم ، ثم قلت فى نفسى : سوءة ! وَثِق بى رجلٌ وزَعم أنّ حاجَته تعْدل مالى ، ثم آتيه فأقول:عَجَزتُ عن ثلاثة أبيات ! فانصرفت عامداً إلى أعظمها بيتاً ، فإذا هو قد أُرْخى مُقدَّمه ومؤَخَّره ، فسلّمت فرُدّ علىّ السلام ، وذكرتُ لهم ضالّتى . فقالت جارية منهم : ياعبد الله ، قدأصبتَ ضالَّتك، وما أظنّك إلّا قد اشتدّ عليك الحرّ واشتهيتَ الشراب ؟ قلت : أجل . فقالت : أُدخل . فدخلتُ . فأَتَتْنى بَصْحفة فيها تَمر من تمر هَجر ، وقَدح فيه لَبن . والصَّحفة مِصْريّة مُفَضَّضة ، والقَدح مفضَّض . ولم أر قطُّ إناء أَحسنَ منه. فقالت: دونَك . فتجمَّعتُ وشربتُ من اللبن حتى رويتُ . ثم قلت : يا أمة الله ، والله ما أتيتُ اليوم أكرمَ منك ولا أحقَّ بالفضل ، فهل ذكرتِ من ضالّتى ذكراً ؟ فقالت :

هل ترى هذه الشجرةَ فوق الشَّرف ؟[1] قلتُ : نعم . قالت : فإن الشمس غَرَبتْ أمسِ وهى تُطيف حولَها ، ثم حال الليل بينى و بينها . فقمتُ وجزيتُها الخير ، وقلت: والله لقد تَغدّيتُ ورَويتُ . فخرجتُ حتى أتيتُ الشجرةَ ، فأطفتُ بها ، فوالله ما رأيتُ من أثرٍ . فأتيتُ صاحبى فإذا هو مُتَّشح فى الإبل بكسائه ورافعٌ عَقيرته يُغنِّى . فقلت : السلام عليك . قال : وعليك السلام ، ماوراءك ؟ قلتُ : ماورائى من شىء . قال : لا عليك ، فأَخبرنى بما فعلْتَ . فاقتصصتُ عليه القصّة حتى انتهيتُ إلى ذكر المرأة وأخبرتُه بالذى صنعتْ . فقال : قد أصبتَ طَلِبَتَك . فعجبتُ من قوله وأنا لم أجد شيئاً . ثم سألنى عن صفة الإناءين : الصَّحفة والقدح. فوصفتُهما له . فتنفّس الصُّعداء وقال : أصبت طَلِبتك ، ويحك ! ثم ذكرتُ له الشجرة وأنها رأتْها تُطيف بها . فقال : حَسْبك ! فمكثتُ حتى إذا أوت إبلى فى مَباركها دعوتُه إلى العشاء . فلم يَذق منه وجلس منّى بمزجَر الكلب.[2] فلما ظَنّ أنى قد نِمتُ رمقتُه، فقام إلى عَيْبة له فاستخرج منها بُرْدَين فاتّزر[3] بأحدهما وتردّى بالآخر ، ثم انطلَق عامداً نحو الشَّجرة . واستبطنتُ الوادىَ وجعلت أُخفى نفسى، حتى إذا خِفْت أن يرانى أنبطحتُ . فلم أزل كذلك حتى سبقتُه إلى شَجرات قريبٍ من تلك الشجرة حيث أسمع كلامَهما ، فاستترتُ بهنّ ، فإذ صاحبتُه عند الشجرة . فأقبل حتى إذا كان منها غيرَ بعيد . فقالت : أجلس . فوالله لكأنّه لَصق بالأرض. فسلّم عليها وسألها عن حالها أكرم سُؤال سمعتُ به وأبعده من كل ريبة . وسألته مثل مسألته . ثم أمرت جاريةً معها فقرَّبت إليه طعاماً . فلمّا أكل وفَرغ منه ، قالت : أَنْشدنى ما قلت . فأنشدها :

عَلقتُ الهوى منها وليداً فلم يزل إلى اليوم يَنْمِى حُبُّها ويَزيدُ

فلم يزالَا يتحدّثان ، ما يقولان فُحْشاً ولا هُجْراً ، حتى ألتفتت ألتفاتةً ،

(١) الشرف : المكان العالى . (٢) بمزجر الكلب ، أى غير بعيد .
(٣) فاتزر ، مثل : فأتزر ، أدغمت الهمزة فى التاء .

فنظرتْ إلى الصُّبح ،فودّع كلُّ واحد منهم صاحبَه أحسنَ وَدَاع ما سمعتُ به قطُّ . ثم انصرفا . فقمتُ ومضيت إلى إبلى واُضطجعت . وكل واحد منهما يَمشى خُطوة ثم يلتفت إلى صاحبه . فجاء بعد ما أَصبحنا ،فرَفع بُرْديه ثم قال : يا أخا بنى تميم ، حتّى متى تنام ؟ فقمتُ وتوضّأت وصلّيت وحلَبت إبلى وأعاننى عليها ، وهو أظهر الناس سُروراً ، ثم دعوتُه إلى الغَداء فتغدّى ، ثم قام إلى عَيْبته ففَتحها ، فإذا فيها سِلاح و بُردان مما كسَتْه المُلوك .فأَعطانى أحدَهما وقال : أما والله لو كان معى شىء ما اُدْخرته عنك . وحدَّثنى حديثَه وانتسب لى ، فإذا هو جَميـل والمرأة بُثينة . وقال لى : إنى قد قلتُ أبياتاً من بعد مُنْصرفى من عندها ، فهل لك إن رأيتها أن تُنشدها ؟ قلت : نعم . وأَنشدنى :

فما أَنْس م الأشياء لا أَنس قولَها وقد قَرَّبتْ نِضْوى أَمِصْر تُريدُ

الأبيات : ثم ودّعنى واُنصرف. فمكثتُ حتى أخذتِ الإبل مراعيَها . ثم عمدتُ إلى دُهْنٍ كان معى فدهنتُ به رأسى ، ثم ارتَديتُ بالبُرْد وأتيتُ المرأة ، فقلتُ : السلامُ عليكم ، إنّى جئتُ أمسِ طالباً واليومَ زائراً ، أفتأذنون ؟ قالت : نعم . فسمعتُ جُويريةً تقول لها : يا بُثينة ، عليه والله بُرْد جَميل ! فجعلت أُثنى على ضَيفى وأذكر فَضْله ، وقلت : إنه قد ذكَرك بأَحسن الذِّكر ، فهل أنتِ بارزةٌ لى حتى أنظُر إليك ؟ قالت : نعم . فلبست ثيابها ثم بَرزت ودَعت لى بطُرَف ، ثم قالت : يا أخا بنى تَميم ، والله ما ثَوباك هذان بمُشْتبهين ، ودعتْ بعَيْبتها فأَخرجت لى مِلْحفةً مُشْبَعةً من العُصفُر ، ثم قالت : أقسمتُ عليك لتقومَنّ إلى كِسْر البيت ولتخلعَنّ مِدْرَعتك[1] ثم لتتزرنّ بهذه المِلْحفة، فهى أَشبه ببُرْدك . ففعلتُ ذلك وأخذتُ مِدْرعتى بيدى وجعلتُها إلى جانبى ، ثم أنشدتُها الأبيات .

(١) المدرعة : ثوب من الصوف .

فدَمعت عيناها ، وتحدّثنا طويلاً من النهار ، ثم انصرفتُ إلى إبلى بِملْحفة بُثينة و بُرْد جَميل .

قال مَعبد : فجزيتُ الشيخ خيراً ، وانصرفتُ من عنده ، وأنا والله أحسنُ الناس حَالاً بنَظْرة من الغَريض وٱستماع لغنائه ، وعِلْم بحديثِ جَميل و بُثينة ، فيما غَنَّيتُ أنا به وفيما غَنَّى به الغَريض ، على حقّ ذلك وصِدْقه . فما رأيتُ ولا سَمِعْتُ بزوجين قط أحسن من جميل و بُثينة ، ومن الغَريض ومِنّى .

ومن هذه القصيدة التى لجَميل :

وأفنَيتُ عُمْرى فى ٱنتظارى نَوالَها ... وأفنتْ بذاك الدهرَ وهو جَديدُ
فلا أنا مَرْدودٌ بما جئتُ طالِباً ... ولا حُبُّها فيما يَبِيد يَبِيـــد
إذا قلتُ مابى يا بُثينـــة قاتِلِى ... من الحُب قالتْ ثابتٌ ويَزيد
و إنْ قُلْتُ رُدِّى بعضَ عَقْلى أعِشْ به ... تولَّت وقالتْ ذاكَ مِنْكَ بَعيد

ومنها ، وهو أولُها :

ألا ليتَ رَيْعانَ الشَّباب[1] جَديدُ ... ودهـــراً تولَّى يا بُثين يَعُودُ
فنَغْنَى كما كُنّا نكون وأنتمُ ... قَريبٌ وما قد تَبْذُلين زَهيـد
ألا ليتَ شِعْرى هل أبيتنّ ليلةً ... بوادى القُرى[2] إنِّى إذاً لَسعيد
وهل أَلْقينْ سُعْدى من الدهر ليلةً ... وما رثَّ من حَبل الصَّفاء جَديد
فقد تَلْتقى الأهـــواء بعد تفاوتٍ ... وقد تُطْلَب الحاجاتُ وهى بَعيد

نصيب يصف نفسه وجميلا وكثيرا وابن أبى ربيعة

وحكى بعضُهم ، قال : قَدم نُصيب الكوفة فأَرسلنى أَبى إليه ، وكان له صديقاً ، فقال : أَقْرئه منّى السلامَ وقُل له : إن رأيت أن تُهدى لنا شيئاً مما قلتَ ؟ فأتيتُه فى يوم جُمعة وهو يصلِّى ، فلما فرغ أقرأته السلامَ وقلت له . فقال : قد عَلم

(١) ريعان الشباب : أوله . (٢) وادى القرى : بين المدينة و الشام .

أبوك أنّى لا أُنشد فى يوم الجمعة ، ولـكن تَلْقانى فى غيره ، فأَبلُغ ما تحب . فلما خرجت وانتهيتُ إلى الباب رُدِدْت إليه . فقال : أتروى شيئاً من الشعر ؟ قلت : نعم . قال : أنشدنى . فأنشدته قولَ جميل :

إنى لأحفظ سركم ويسُرّنى لو تعلمين بصالح أن تُذكرى
وَيكون يومٌ لا أرى لك مُرسَلا أو نلتقى فيه علىّ كأشهر
ياليتَنى أَلْقى المنيّة بغتةً إن كان يومُ لقائكم لم يُقْدَر

فقال نُصيب : أَمسكْ ! أَمسك ! لله دَرُّه ! ما قال أحدٌ إلّا دون قوله . ولقد لَحَب[1] للناس مِثالا يَحتذون عليه. ثم قال: أمّا أصدَقُنا فى شعره فَجَميل، وأمّا أوصفُنا لربّات الحِجال فكُثَيِّر، وأمّا أكذبُنا فعُمر بن أبى رَبيعة، وأمّا أنا فأقُول ما أَعرف.

وقد رَوى أبو الفرج هذه الأبياتَ الثلاثةَ لعُمر بن أبى ربيعة ، وزاد فيها :

ما كُنتِ والوعدَ الذى تَعدِينَنى إلّا كبرْقِ سَحابةٍ لم تَمْطُرُ
تُقْضَى الدّيونُ وليس يُنْجِزُ عاجلاً هـذا الغَريم لنا وليس بمُعْسِر

صنع لحنا عند سماعه أصوات رهبان

وذُكر أنّ الغَريض سَمع أصواتَ رهبان بالليل فى دَيْرٍ لهم، فاستحسنها. فقال له بعضُ مَنْ كان معه : يا أبا يزيد، ضَع على مثل هذا الصوت لحناً . فصاغ مثلَه فى لحنه:

يا أُمَّ بَكْرٍ حُبُّكِ البـادِى لا تَصْرِمِينى إنّنى غادِى
جَدَّ الرحيلُ وحثَّنى صَحْبى وأُريد إمتاعاً من الزّاد

ثم استطرد أبو الفَرج بذكر واقعة ظَريفة وهى :

حَكى عمرو بن عُقبة ، ويُعرف بابن الماشطة ، قال :

ابن أبى الهيثم وناسك

خرجت أنا وأصحابٌ لى ، فيهم إبراهيمُ بن الهَيثم ، إلى العَقيق ، ومعنا رجلٌ ناسك كُنّا نَحتشم منه ، وكان محموماً نائماً ، وأَحببنا أن نَسمع مَنْ معنا من المُغنّين ،

(١) لحب : أوضح وبين .

ونحن نَهابه ونَحْتشمه ، فقلت له : إنّ فينا رجلاً يُنشد الشعرَ فيُحْسن . ونحن نُحب أن نَسمعه ، ولكنّا نَهابك . قال : فما علىّ منكم ، أنا محموم نائم ، فاصْنَعوا ما بدالكم . فاندفع إبراهيم بن الهَيْثم يُغنّى :

* يا أُمَّ بَكْرٍ حُبُّكِ البَادِى * البيتين

فأجاده وأحسنه . قال : فوثب الناسكُ فجعل يرقُص ويَصيح : أُريد إمتاعاً من الزاد ! والله أُريد إمتاعاً من الزاد ! ثم كَشف عن أمره ، وقال : أنا أَنيك أُمَّ الحُمَّى . قال : فقلت : أعتقت ما أَملك إن كان ناك أُمَّ الحُمَّى أحد قبله .

هربه الى اليمن وموته

وذُكر أن سُليمان بن عبد الملك بن مروان ولّى نافعَ بن عَلْقمة[1] مكةَ ، فخافه الغَريضُ ، لأنّه كان كثيراً ما يطلُبه ولا يَجيئه ، فاستخفَى فى بعض منازل إخوانه . فذكر رجلٌ كان يَخْدُمه من أهل مكة أنه دَفع إليه يوماً رَبعةً[2] له ، وقال : صِرْ بها إلى فُلانٍ العطّار يملؤها لى طِيباً . قال : فصِرت بها إليه ، فلقينى نافعُ بن عَلْقمة فقال : هذه رَبْعة الغَريض والله ! فلم أَقْدر أن أكتُمه ، فقلت : نعم . قال : ما قِصّته ؟ فأخبرتُه الخبر . فَضحك وقال صِرْ معى إلى المنزل . ففعلتُ . فملأها طِيباً وأعطانى دنانير . وقال : أَعْطه وقُل له : يَظْهر ولا بأس عليه . فصرتُ إليه مَسروراً فأخبرتُه بذلك فَجزِع ، وقال : الآن يَنبغى لى أن أَهرُب ! هذه حيلةٌ أُحتالها علىّ لأقَع فى يده . ثم خَرج من وقته إلى اليمن .

فَحكَى بعضُ بنى مَخْزوم أنه لمّا صار إلى اليمن وأقام بها ، أُجتزنا به فى بعض

(١) الذى ولى « نافع بن علقمة » هو الوليد . وسياقة الخبر فى الأغانى على هذا ، وكأن ابن واصل حين جرد أخل . والعبارة فى الأغانى : « وكانت وفاة الغريض فى أيام سليمان بن عبد الملك أو عمر بن عبد العزيز لم يتجاوزها . والأشبه أنه مات فى خلافة سليمان ، لأن الوليد كان ولى نافع بن علقمة مكة » . (٢) الربعة : جونة العطر.

أسفارنا ، قال : فلمّا رآنى بَكى . قلتُ له : ما يُبكيك ؟ قال : بأَبى أنت ! وكيف يَطيب لى أن أعيشَ بين قوم يَروْننى أحمل عُودى ، فيقُولون لى : ياهَناه[1] ، أتبيع مُؤخرة الرَّحل[2] ؟ فقلت له : أرجع إلى مكّة فبها أهلُك . قال : يابن أخى ، أنا كنتُ أستلذُّ مكة وأعيشُ بها مع أَبيك ونحوه . وقد أوطنتُ هذا المكانَ ولست تاركه ما عشتُ . فقلنا له : فغنِّنا بشىء من غِنائك . فأَبى . ثم أَقسمنا عليه فأجاب . ثم عَمدنا إلى شاة فذَبحناها وخَرَطنا من مُصْرانها أَوتاراً ، فشدّها على عوده وأندفع يُغنى فى شعر زُهير :

جَرَى دَمْعى فهيَّج لى شُجونَا فَقَلْبى يَسْتَجنُّ به جُنونَا

فما سمعنا شيئاً أحسنَ منه . فقلتُ له: أرجع إلى مكة، فكُل مَن بها يشتاقك.

قال : ولم نزل نُرغِّبه فى ذلك حتى أجاب إليه . ومَضَينا لحاجتنا . ثم عُدْنا فوجدناه عليلاً ، فقُلنا : ما قصّتُك ؟ فقال : جاءنى مُنذ ليالٍ قومٌ ، وقد كنت أغنىّ فى الليل ، فقالوا : غَنِّنا . فأنكرتُهم وخِفْتهم ، فجعلت أُغنِّيهم ، فقال لى بعضُهم : غَنِّني :

لقد حَثُّوا الجِمالَ لِيَهْ رُبُوا منّا فلم يَئِلوا[3]

ففعلت . فقام إلىّ هَنٌ منهم أَزَبُّ ، فقال لى : أَحسنتَ والله ! ودَقَّ رأسى حتى سقطتُ لا أدرى أين أنا . فأَفقتُ بعد ثالثةٍ وأنا عليلٌ كما ترَى ، ولا أُرانى إلّا سأموت . فأقمنا عنده بقيّةَ يومنا. ومات من غده، فدفنّاه وانصرفنا .

---

(١) الهن : كلمة يكنى بها عن اسم الإنسان . وقد تزاد فى النداء الألف والهاء ، فيقال : ياهناه ، بالضم والكسر . فالضم على أنها آخر الاسم . والكسر لالتقاء الساكنين .

(٢) مؤخرة الرحل : ما يستند إليه الراكب، أو هى خلاف قادمته .

(٣) لم يئلوا : لم يجدوا موئلا وملجأ يعتصمون به .

أخبار أخرى عن موته

وزَعم المكيّون أنّ الغَريض خَرج إلى بلاد عَكّ[1] فغنّى ليلاً :

هُمُ رَكْبٌ لَقُوا رَكْبا[2] كما قد تجمَعُ السُّبُلُ

فصاح صائحٌ : اكفُفْ يا أبا مَرْوان ! فقد سفَّهت حُلَماءَنا وأَصْبَيْت سُفهاءنا . وأَصبح ميتاً .

وذَكر آخر قال :

شهدتُ مَجْمَعاً لآل الغَريض ؛ إمّا عُرْساً وإمّا خِتَاناً . فقال له بعضُهم : غنّ . فقال : هو ابنُ زانية إن فعل . فقال له بعضُ مواليه : فأنت والله كذلك ! قال : أو كذلك أنا ! قال : نعم . قال : أنت أعلمُ بى والله ! ثم أَخـذ الدُّف فرَمى به وتمشَّى مِشْيةً لم أَرَ أحسنَ منها ، ثم تغنَّى :

تَشرَّب لونَ الرّازقىّ[3] بياضُـه أو الزَّعفرانِ خالَطَ المِسْكَ رادعُهْ

فجعل يُغنّيه مُقبلاً ومُدبراً حتى التوتْ عُنقه ، فخرّ صريعاً ، وما رَفعناه إلا ميتاً وظننا أنّ فالجاً عاجَله .

وكانت وفاتُه فى خلافة عُمر بن عبد العزيز ، أو سُليمان بن عبد الملك . ورجّح أبو الفَرج هذا الثانى .

---

(١) عك : قبيلة . والبلاد التى تضاف إليها : مخلاف باليمن .

(٢) فى الأصل : « زادا » .

(٣) الرازقى : الأبيض من ثياب الكتان . وقيل : هو ضرب من عنب الطائف أبيض اللون.

أخبار الحكم بن عبدل

نسبه

وهو الحكم بن عَبْدل بن جَبَلة بن عَمْرو[1] بن ثَعْلبة بن عِقَال بن بِلال ابن سعد بن حِبَال بن نَصْر بن غاضِرة بن مالك بن ثَعْلبة بن دُودَان بن أَسد ابن خُزَيمة بن مُدْركة بن اليأس بن مُضَر بن مَعدّ بن عَدْنان .

شعره ونشأته وشيء عن عصاه

شاعر مُتقدِّم فى طَبقته ، هجّاء خَبيث اللسان ، من شُعراء الدولة الأُمويّة . ومنشؤه بالكوفة ، وكان أعرجَ أحدبَ ، وكان لا تُفارقه العَصا ، فترَك الوقُوفَ بأَبواب المُلوك . وكان يكتب حاجَته على عصاه ، فيبعثُ بها مع رُسُله ، ولا يُحْبس له رسول ، ولا تُؤخَّر له حاجة . وفى ذلك يقول يحيى بن نَوْفل :

عَصَا حَكَمٍ فى الدّار أولُ داخلٍ ... ونحنُ على الأبواب نُقْصَى ونُحْجَبُ
وكانتْ عَصَا موسى لفِرْعونَ آيةً ... وهذى لعَمْرُ الله أَدْهى وأعجب
تُطاع ولا تُعْصَى ويُحْذَر سُخْطُها ... ويُرْغَب فى المَرْضاة منها[2] وتُرْهب

فشاعت هذه الأبياتُ بالكُوفة وضَحِك الناسُ منها ، فكان ابن عَبْدل بعد ذلك يقول ليحيى : ياابنَ الزَّانية ! ما أردتَ من عَصاى حتى تركتَها ضُحْكة ! واُجتنَب أن يَكْتب عليها كما كان يَفعل ، وكاتَب الناسَ بحوائجه فى الرِّقاع .

هو وأبو علية وصاحب العسس

وقيل :

كان للحَكَم بن عَبْدل صديقٌ أعمى ، يقال له : أبو عُلَيَّة ، وكان ابن عَبْدل قد أُقْعد ، فخرَجا ليلةً من منزلهما إلى منزل بعض إخوانهما ، والحَكَم يُحمل وأبو عُليّة يُقاد . فلَقيهما صاحبُ العسس بالكُوفة فحبسهما . فلما اُستقرَّا فى الحَبْس

(١) فى الأصل : « عمر » .
(٢) فى بعض أصول الأغانى : « ويرهب » .

نَظر الحَكَم إلى عصا أبى عُلَيّة موضوعةً إلى جانب عَصاه ، فضَحك وأنشأ يقول :

حَبْسى وحَبْسُ أبى عُلَيّـــةَ من أعَاجيب الزَّمانِ
أَعْمى يُقـــاد ومُقْعَدٌ لا الرِّجْل منه ولا اليَدان
هذا بلا بَصَرٍ هُنـــا كَ وبى يَخُبّ الحامِلان
يا مَنْ رأى ضَبَّ الفَـلا ة قَرِينَ حُوتٍ فى مَكان
طِرْفِى وطِرْفُ أبى عُلَيّـــة دَهْـرَنا مُتوافقان
مَن يَفْتخر بجَـــواده فَجِيادُنا عُـكّازتان
طِرْفان لا عَلَفاهُمـــا يُشْرَى ولا يَتَصـاولان
هَبْنى وإيّاه الحَـــرِي قَ أكان يَسْطع بالدُّخان

شعره فى عرجان

وقيل :

وَلِى الشُّرطة بالكُوفة رجلٌ أعرج ، ثم وَلى الإمارة آخر أعرج ، وخرج ابنُ عَبْدل وكان أعرج ، فلقى سائلاً أعرج ، وتَعرَّض للأمير يسأله ، فقال ابنُ عبدل للسائل :

أَلْقِ العَصا ودَعِ[1] التَّخامُعَ وَالْتَمِسْ عَمَـــلاً فهذى دَوْلَةُ العُـرْجانِ
لأميرنا وأمـــيرِ شُرْطتنا معاً ياقَوْمنا لـكلَيْهما رِجْـــلان
فإذا يكونُ أميرُنا[2] ووزيرُه وأنَا فَرَابِعُنـا إذاً[3] شَـــيْطانُ

فبلغت أبياتُه الأميرَ ، فبعث إليه بمائتى درهم وسأله أنْ يكُفَّ عنه .

(١) التخامع : التظاهر بالخمع ، وهو العرج .
(٢) فى بعض أصول الأغانى : « ووزيرنا » مكان « ووزيره » .
(٣) فى بعض أصول الأغانى :
* وأنا فإن الرابع الشيطان *
وعلى الروايتين فالإقواء . وهو اختلاف حركة الروى بالرفع والكسر .

هو وعبد الملك ابن بشر فى رؤيا

وقيل :

كانت لأبن عَبْدل حاجةٌ إلى عبد الملك بن بِشْر بن مروان ، فَجعل يدخُل عليه ولا يتهيّأُ له الكلامُ ، حتى جاءه رجلٌ فقال له : إنّى رأيت لك رُؤْيا . فقال : هاتِها . فقصّها عليه . فقال ابنُ عَبْدل : وأنا قد رأيتُ أيضاً . فقال : هاتِ ما رأيتَ . فقال :

أغْفَيتُ قبلَ الصُّبح نوم مُسَهَّدٍ ... فى ساعةٍ ما كنتُ قبل أنامُها
فحَبَوْتَنى فيما أرى بوَليدةٍ ... مَغْنوجةٍ[1] حَسَن علىّ قِيامها
و ببَدْرةٍ حُمِلتْ إلىّ وبَغْلةٍ ... شَهْباء ناجيةٍ يَصِلُّ[2] لِجامُها
ليت المَنابرَ يابْنَ بِشْرٍ أصبحتْ ... تُرْقَى وأنتَ خطيبُها و إمامُها

فقال له أبنُ بشر : إذا رأيتَ هذا فى اليَقظة أتعرفُه ؟ قال : نعم . و إنما رأيتُه قُبيل الصُّبح . قال : يا غلام ، ادْعُ فلاناً . فجاء بوكيله . فقال : هاتِ فُلانة . فجاءتْ . فقال : أين هذه مما رأيتَ ؟ قال : هى هى ، و إلّا عليه وعليه . ثم دعا له ببَدْرة ، فقال : مثلَ ذلك . و ببَغلة فرَكبها . وخَرج فلقيه قَهْرمان[3] عبد الملك . قال : أتبيعها ؟ قال : نعم . قال : بكم ؟ قال بستّمائة : قال : هى لك . فأَعطاه ، ثم قال : أمَا والله لو أبيتَ إلّا ألفاً لأعطيتُك . قال : إيّاى تُندم ! لو أبيتَ إلّا ستةً لأعطيتُك[4] .

هو وابن هبيرة

وقيل :

قدم الحَكَم بن عَبْدل واسطاً[5] على أبن هُبَيرة ، وكان بَخيلاً ، فأَقبل حتى وقَف بين يديه ، ثم قال :

(١) مغنوجة : حسنة الدل . والمسموع : مغناجة أو غنجة .
(٢) ناجية : سريعة . ويصل : يصوت .
(٣) القهرمان : الوكيل ، أو أمين الدخل والخرج .
(٤) فى بعض أصول الأغانى : « تبعتك » .
(٥) واسط : بلد بين البصرة والكوفة ، يصرف ولا يصرف .

أتيتُك فى أمرٍ مِنَ الأمر عَشيرتى وأعْيَا الأُمور المُفظعات[1] جَسِيمُها
فإنْ قلتَ لى فى حاجتى أنا فاعلٌ فقد ثَلِجتْ نَفْسى وولَّتْ هُمُومها

فقال : أنا فاعل إن اقتصدتَ ، فما حاجتُك ؟ قال : غُرْمٌ لَزِمنا فى حَمالة[2] . قال : وكم هى ؟ قال : أربعة آلاف . قال : نحن نُناصِفُوكها . قال : أصلح الله الأمير ، أتخاف علىّ التُّخمة إن أتممتَها ؟ قال : أكره أن أُعوِّد الناسَ هذه العادةَ . قال : أعطنى جميعَها سرًّا وأمنَعْنى جميعَها ظاهراً ، حتى تُعوِّد الناسَ المَنْع ، وإلّا فالضَّرر عليك واقعٌ إنْ عوَّدتَهم نصفَ ما يطلُبون . فضَحك ابنُ هُبيرة وقال : ما عندنا غيرُ ما بذلناه لك . فجثا بين يَدَيْه وقال : امرأتُه طالقٌ لا أخذتُ أقلَّ من أربعة آلاف أو أنصرفُ وأنا غَضبان . فقال : أعطوه إيّاها فإنه ما علمتُ حَلَّاف مَهين[3] . فأخَذها وانصرف .

هو وأبو المهاجر

وقيل :

دعا أبو المُهاجر الحَكَم بن عَبْدل ليشرب عنده ، وله جاريةٌ تُغنِّى ، فغنَّت . فقال ابنُ عَبْدل :

يا أبا المُهاجر قد أردتَ كَرامتى فأَهَنْتَنى وضررتَنى لو تَعْلَمُ
عند التى لو مَسَّ جِلْدِى جِلْدَها يوماً بقيتُ مُخلّداً لا أَهْرَم
أو كنتُ فى أعلى[4] جَهنَّم بُقْعةً فرأيتُها بَرَدَتْ علىّ جَهنّم

فجعل أبو المُهاجر يَضحك ويقول : وَيْحك ! واللهِ لو كان إليها سبيلٌ لوهبتُها لك ، لكن لى منها وَلَد .

(١) فى بعض أصول الأغانى : « المقطعات » .
(٢) الحمالة : الكفالة ، أى الضمان .
(٣) مهين : فاجر .
(٤) فى بعض أصول الأغانى : « فى أحمى » .

هو وابن يزيد الأسدى

وقيل :

كان عُمر بن يَزيد الأَسدىّ مُبخَّلاً ، ووَجـده أَبوه مع أَمةٍ له ، فكان يُعيِّر بذلك . فجاءه الحَـكَم بن عَبْدل ومعه جَماعةٌ من قومه يسألونه حاجةً ، فدخلوا إليه وهو يأكل تَمراً ، فلم يَدْعُهم إليه ، وذكروا حاجَتهم فلم يَقْضِها ، فقال ابنُ عَبْدل :

جِئْنا و بين يَدَيْه التَّمرُ فى طَبَقٍ ... فما دَعَانا أبو حَفْصٍ ولَا كادَا
عَلَا على جِسْمه ثَوْبانِ من دَنَسٍ ... لُؤْمٌ وجُبْنٌ[1] ولولا أَيْرُه سادا

هو وامرأة سألته قضاء ديونها

وذُكر أنّ امرأة كانت موسرةً بالكوفة، وكانت لها على الناس ديون بالسَّواد. فاستعانتْ بابن عَبْدل فى دَيْنها وقالت : إنّى امرأةٌ وليس لى زَوْج ، وجعلت تُعرِّض بأنها تُزوِّجه نَفْسها . فقام ابنُ عَبْدل فى دَيْنها حتى اقتضاه ، فلما طالَبها بالوَفاء كتبتْ إليه :

سيُخطئك الذى حاولتَ منِّى ... فقَطِّع حَبْل وَصْلك مِن حِبالِى
كما أَخطاك مَعروفُ ابن بِشْر ... وكنتَ تَعد ذلك رأسَ مال

وكان ابن عَبْدل أتى ابنَ بِشر بالكُوفة فسأله ، فقال: خَمسمائة أحبُّ إليك الآن أم ألفٌ فى قابل ؟ فقال : ألف فى القابل . فلما أتاه قال : ألف أحبّ إليك الآن أم ألفان فى القابل ؟ فلم يزل ذلك دأبَه حتى مات ابن بِشْر وما أعطاه شيئاً .

وقيل :

دخل ابنُ عَبدل على عبد الملك بنُ بِشْر فقال : ما أَحدثتَ بعدى ؟ قال : خطبتُ امرأة من قومى فردّت على جوابَ رسالتى بيتين شعراً . قال : وما هما ؟ قال : قالت :

* سيُخطئك الذى حاولتَ منِّى *

(١) فى الأصل : « وكفر » .

وذكر البيتين . فضحك عبدُ الملك وقال: لَجاد[١] ما أَذْكرتَ بنفسك !وأمر له بألفى درهم .

هو وابن هبيرة وقد طلبه للغزو

وقيل :

أراد عُمر بن هُبيرة أَن يُغْزِى الحَكَم بن عَبْدل ، فاُعتل بالزَّمانة[٢] ، فُحمِل وأُلقى بين يديه . فَجرَّده فإذا هو أعرج مَفْلوج ، فوضع عنه الغَزْو وضَمّه إليه ، وشَخص به معه إلى واسط ، فقال الحكم :

لَعَمْرى لقد[٣] جَرّدتَنى فوجدْتَنى كَثِيرَ العُيوب سَيِّئَ[٤] المُتجرَّدِ
فأَعْفَيْتَنى لمّا رأيتَ زَمانَتى ووُفِّقت منّى للقضاء المُسدَّدِ

فلما صار عُمر إلى واسِط شكا إليه الحَكَمُ الضَّبْعة[٥] . فوهب له جارية من جواريه . فوَاثبها ليلةَ صارتْ إليه ، فنكحها تسعةً أو عَشرة طَلَقاً[٦] . فلما أصبحتْ قالت له : جُعلت فِداك ! من أىّ الناس أنت ؟ قال : اُمرؤٌ من أهل الشأم . قالت : بهذا العمل نُصِرْتم .

رثاؤه لبشر ابن مروان

وقيل :

كان الحَكم بن عَبْدل مُنقطعاً إلى بِشْر بن مروان ، وكان يأْنس به ويُحبه ويَسْتَطِيبه ، وأَخرجه معه إلى البَصرة لمّا وَلِيها ، فلما مات بِشْر جَزِع عليه الحَكَم وقال يَرْثيه :

أصبحتُ جَمَّ بَلابلِ الصَّدْرِ مُتعجِّباً لتصرُّف الدَّهْرِ
ما زلتُ أَطلُب فى البلاد فتًى ليكونَ لى ذُخْراً من الذُّخْرِ
ويكون يُسْعدنى وأُسْعدُه فى كُلّ نائبةٍ من الأَمر

(١) فى بعض أصول الأغانى : «لحاك الله ما أذكرت ... الخ» .
(٢) الزمانة : العاهة . (٣) فى الأصل : «الذى» . (٤) سيىء المتجرد : سيىء الجسم .
(٥) الضبعة : شدة الشهوة . والذى فى الأصل : «الضيعة» . (٦) طلقا : شوطاً واحداً .

حتى إذا ظَفِرتْ يداىَ به ... جاء القضاء بحَيْنه يَجْرى
إنِّى لَفى هَمٍّ يُبا ... كِرُنى منه وهَمٍّ طارقٍ يَسْرى
ولأَصْبرنَّ فما رأيتُ دَوا ... ءَ الهمِّ مِثل عَزيمة الصَّبْر
واللهِ ما اُستعظمتُ[1] فُرْقَته ... حتى أَحاط بفَضْله خُبْرى

هو وعبد الملك بعد خروجه إلى الشام

وقيل :

لما ظَفِر عبدُ الله بن الزُّبير بن العوّام بالعِراق وأَخرج منها عُمّالَ بنى أُمية ، خرج ابنُ عَبْدل معهم إلى الشأم ، وكان فيمن يدخُل على عبد الملك بن مَروان و يَسْمُر معه ، فقال لعبد الملك ليلةً :

يا ليتَ شِعْرى وليتٌ رُبّما نَفعتْ ... هل أُبْصِرَنَّ بَنى العوّام قد شُمِلُوا
بالذُّل والأَسْر والتَّشريد إنَّهمُ ... على البريّة حَتْفٌ حيثما نَزلوا
أَم هل أراك بأكناف العِراق وقَد ... ذلَّت لعِزِّك أقوامٌ وقد نَكَلوا

فقال عبد الملك بن مَروان ، وقيل إنّه صاحبُ هذا الشعر :

إنْ يُمْكِنِ اللهُ من قَيْس ومن[2] جَدَسٍ ... ومن جُذَام و يُقْتَلْ صاحبُ الحَرَم
نَضْربْ جَماجِم أقْوامٍ على حَنَقٍ ... ضَرْباً يُنَكِّلُ عنّا سائرَ الأُمم

هو وصاحبه العسس

وقيل :

مَرَّ صاحبُ العَسس ليلةً بابْن عَبدل وهو سَكران محمولٌ فى مِحَفَّة ، فقال له : مَن أنت ؟ فقال : يا بَغيض ، أنت أعرفُ بى من أن تسألَنى مَن أنا ، اُذهبْ إلى شُغلك فإنك تَعلم أنّ اللُّصوص لا يَخْرجون باللَّيْل للسَّرقة مَحْمولين فى مِحَفّة ! فضَحك الرجلُ وانصرف عنه .

(١) فى بعض أصول الأغانى : « ما استطعمت » . (٢) هذه رواية الأصل . وجدس : بطن من كندة . وفى بعض أصول الأغانى : «جرش» وهى بطن من حمير . وفى بعض آخر : «جرش» . وهو اسم لعدة قبائل .

تفضيل الحجاج له على الشعراء

وقيل :

اُجتمع الشُّعراء عند الحجّاج بن يُوسف ، وفيهم اُبنُ عَبْدل ، فقالوا : إنما شِعر اُبن عَبْدل كُلّه هُجْر وسَخْف . فقال له : سمعتَ قولَهم فاستمعْ منّى . قال : هات . فأَنشده قولَه :

وإنّى لأَسْتَغنِي فما أبْطَرُ الغِنَى ... وأُعْرِضُ مَيْسُورى لمن يَبْتَغى قَرْضِى
وأُعْسِر أحيانًا فتَشتدُّ عُسْرتى ... فأُدْرِكُ مَيسورَ الغِنَى ومَعى عِرْضى

حتى اُنتهى إلى قوله :

ولستُ بذى وَجْهَيْن فيمن عرفْتَه ... ولا البُخْلُ فاُعلَمِن سَمائِى ولا أَرْضِى

فقال له الحجاج : أحسنتَ ! وفضَّله فى الجائزة عليهم بألف درهم .

والشِّعر الذى يُغنَّى فيه لاُبن عبدل واُفتتح به أبو الفرج أَخباره ، هو :

لقد حَثُّوا الجمالَ ليه ... رُبُوا منّا فلم يَئِلُوا
على آثارهنّ مُقَلَّص السِّربال[1] مُعْتَمِل ... وفيهم قَلْبُك المَتْبو ل بالحسناء مُخْتَبَل

(١) مقلص : قد تشمر وارتفع . ومعتمل : قد أعمل نفسه .

أخبار قيس بن الخطيم

اسمه وكنيته

هو قَيْس بن الخَطيم بن عدىّ بن عمرو بن سُود بن ظَفَر . ويُكْنى أبا يزيد .

خبر أخذه بثأر أبيه وجده

وكان أبوه قُتِل وهو صَغير ، قَتله رجلٌ من بنى حارِثة بن الحارث ، يقالُ له : مالك . قَتله غِيلةً . وكان عدىّ أبو الخَطيم قَبل ذلك قَتله رجلٌ من عبد القَيس . فلما بلغ قَيْسُ بن الخطيم وعَرف أخبار قَومه وموضعَ ثأره ، لم يَزل يلتَمِس غِرَّةً من قاتل أبيه وجدّه فى المَواسم ، حتى ظَفر بقاتل أبيه بيَثْرِبَ فقَتله ، وظَفر بقاتل جدّه بذى المَجاز[1] . فلما أصابه وَجَده فى رَكْب عَظيم من قَومه ، ولم يكن معه إلا رَهْط من الأَوس . فَخَرج حتى أَتى حُذَيفةَ بن بَدْر الفَزارىّ ، فاستنجده ، فلَم يُنْجده . فأَتى خِدَاش بن زُهير ، فنَهض معه ببَنى عامر حتّى أتَوْا قاتِل عدىّ ، فإذا هو واقفٌ على راحلة فى السُّوق ، فطَعنه قيسٌ بحَرْبة فقتله ، فأَراده رَهْطُ الرَّجل ، فحالتْ بنو عامر دونه . فقال فى ذلك قَيْسُ بن الخَطيم :

ثأرتُ عَديًّا والخَطيمَ فلم أُضِعْ ... ولايةَ أشياخٍ جُعلتُ[2] إزاءها

ضَربتُ بذى الزِّرَّيْن رِبْقةَ[3] مالكٍ ... فأَبْتُ بنفسٍ قد أصبتُ شِفاءها

وسامَحنى[4] فيها ابن عَمرو بن عامِرٍ ... خِداشٌ فأَدّى نِعْمةً وأَفاءها

طعنتُ ابنَ عبد القَيْس طَعْنةَ ثائرٍ ... لها نَفَذٌ لولا الشُّعاع[5] أضاءها

---

(١) ذو المجاز : موضع بعرفه : كانت تقام فيه فى الجاهلية سوق من أسواق العرب .

(٢) أى جعلت القيم عليها .

(٣) بذى الزرين ، يعنى سيفه . والزر : حد السيف . والربقة : العروة . يريد موضعها ، وهو العنق .

(٤) سامحنى : وافقنى .

(٥) النفذ : الثقب . والشعاع ، بضم الشين : حمرة الدم ، وبالفتح : انتشاره .

مَلَكْتْ بها كَفِّى وأَنْهَرْتْ[1] فَتْقَها يَرَى قائمٌ مِن دُونِها ما وراءَها

وذُكر أنّ أُمَ قيس كانت خَشِيت على ابنها أن يخرُج فيطلُب بثأر أبيه وجدّه فيهلك ، فعمدتْ إلى كُومة تُراب عند بابهم فوضَعتْ عليها أحجاراً وجعلت تقول لقيس : هذا قبر أبيك وجدّك . فكان قَيس لا يشُك أنّ ذلك كذلك . ونَشأ أيِّداً شديدَ الساعدَيْن ، فنازع يوماً فتًى من فِتيان بنى ظَفَر ، فقال له ذلك الفتى : والله لو جعلتَ شدَّة ساعدَيْك على قاتل أبيك وجَدّك لكان خيراً لك من أن تُخْرِجَها علىّ ! قال : ومَن قاتل أبى وجدّى ؟ قال : سل أُمك تُخْبِرْك . فأخذ السيفَ فَوَضع قائمه على الأرض وذُبَابَه[2] بين ثَدْييه ، ثم قال لأُمه : أخبرينى مَن قَتل أبى وجدّى . قالت : ماتَا كما يموت الناسُ ، وهـذان قَبْراهما بالفِناء . فقال : والله لتُخْبِرِينّى مَن قَتلهما أو لأتحامَلَنّ على هـذا السيف حتى يَخْرُج من ظَهرى . فقالت : أمّا جدُّك فقَتله رجلٌ من بنى عمرو بن عامر بن رَبيعة بن عامر ابن صَعْصعة ، يقال له : مالك . وأمّا أبوك فقَتله رجلٌ من عبد القيس ممّن يسكُن هَجَر . فقال : والله لا أنتهى حتى أقتُلَ قاتل أبى وجدّى . فقالت : يا بُنى ، إنّ مالكاً قاتِلَ جَدِّك من قومٍ خِداش بن زُهير ، ولأبيك عند خِداش نِعْمةٌ هو لها شاكر ، فأْتِه فاستَشِرْه فى أمرك واستَعِنْه يُعِنْك . فخرج قيسٌ من ساعته حتى أتَى ناضِحَه[3] ، وهو يَسْقى نَخْله ، فضَرب الجَرِير[4] بالسَّيف فقَطعه ، فسقط الدَّلوُ فى البئر ، فأخذ برأس الحَبل فحمل عليه غِرَارتَيْن من تَمر ، وقال : مَن يَكْفينى أمر هذه العَجوز ؟ ـ يعنى أُمَّه ـ فإن مِتُّ أنفق عليها من هذا الحائط[5]

(١) ملكت : شددت وضبطت . وأنهرت : أوسعت .
(٢) ذباب السيف : طرفه الذى يضرب به .
(٣) الناضح : البعير يستقى عليه الماء .
(٤) الجرير : الحبل .
(٥) الحائط : البستان .

حتى تَموت ، ثم هو له . و إن عشتُ فهو عائدٌ إلىَّ وله منه ما يشاء أن يأكل من تَمره ؟ فقال له رجل من قومه : أنا له . فأعطاه الحائط ، ثم خَرج يسأل عن خِداش بن زُهير ، حتى دُلَّ عليه بمَرِّ الظَّهران[1] ، فأتى إلى خِبائه فلم يَجِدْه . فنَزل تحت شجرة يكون تحتها أضيافُه ، ثم نادى امرأةَ خِداش : هَل من طَعام ؟ فأَطْلَعتْ عليه ، فأعجبها جمالُه ، وكان من أحسن الناس وجهاً ، فقالت : والله ما عندنا من بِرّك[2] مَا نَرضاه لك إلّا تَمْرا . فقال : لا أُبالى ، فأَخرجى ما كان عندك . فأَرسلت إليه بقُبَاع[3] فيه تَمر . فأَخذ منه تَمرة فأَكل شِقَّها وردَّ شِقَّها الباقى فى القُباع ، ثم أَمر بالقُباع فأُدخل على امرأة خِداش بن زُهَير ، ثم ذَهب لبعض حاجته . ورَجع خِداشٌ فأخبرتْه بخبر قَيس ، فقال : هذا رجل مُتحرِّم[4] . وأقبل قيسٌ راجعاً ، وهو مع امرأته يأكل رُطَبا ، فلما رأى خِداشٌ رِجْلَه ، وهو على بعيره ، قال لامرأته : هذا ضيفُك ؟ قالت : نعم . قال : كأنّ قَدمه قَدمُ الخَطيم صديق اليَثْربىّ . فلما دنا منه قَرَع طُنُبَ البيتِ بسنان رُمْحه ، واستأذن . فأَذن له خِداشٌ . فدخل ، فَنَسبه[5] فانْتسب ، وأَخبره بالذى جاء له ، وسأله أن يُعينَه و يُشير عليه فى أمره . فرحَّب به خِداشٌ وذكَر نِعمة أبيه عنده ، وقال : إنّ هذا الأَمر ما زلتُ أتوقّعه منذُ حين ، فأما قاتلُ جدّك فهو ابن عمّ لى ، وأنا أُعينك عليه ، فإذا اجتمعنا فى نادينا جلستُ إلى جَنْبه وتحدّثتُ معه ، فإذا ضربتُ فخذَه فشُبْ إليه فاقتُله . قال قيس : فأقبلتُ نحوه حتى قمتُ على رأسه لمّا جالَسه خِدَاشٌ ، فحين ضَرب فخذه ضربتُ عُنقه . فثار إلىّ القومُ ليقتلُونى ، فحال خِداشٌ بينهم و بينى وقال : دعُوه فإنّه واللهِ ما قَتل إلّا قاتلَ جدّه .

(١) الظهران : واد قرب مكة . ومر : قرية قريبة منه تضاف إليه .
(٢) فى بعض أصول الأغانى : نزل نرضاه » . والنزل : ما يهيأ للأضياف .
(٣) القباع : المكيال الضخم . (٤) متحرم ، أى له عندنا حرمة وذمة .
(٥) نسبه : طلب إليه أن ينتسب .

ثم دعا خِداشٌ بجَمل من إبله فرَكِبه وانطلق مع قَيس إلى العَبْدى الذى قَتل أباه ، حتى إذا كان قريباً من هَجر ، أشار عليه خداشٌ أن ينْطلق حتى يسأل عن قاتل أبيه ، فإذا دُلَّ عليه قال له : إنّ لصًّا من لُصوص قومك قد عارَضنى فأَخذ متاعاً لى ، فسألتُ : مَنْ سيّدُ قومه ؟ فدُلِلْتُ عليك . فانطلقْ معى حتى تأخُذَ متاعى منه . فإن أتّبعك وحدَه فستنال منه ما تُريد ، وإن خَرج مع غيره فاضْحك، فإن سألك : مِمّ ضَحِكْت ؟ فقل له : إنّ الشَّريف عندنا لا يَصْنع كما صَنعت إذا دُعى إلى اللِّص من قَومه ، إنما يخرج وحدَه بسَوْطه دون سَيفه ، فإذا رآه اللِّص أعطى كُلَّ شىء أخذ هَيبةً له . فإن أمر أهلَه بالرُّجوع فسبيلُ ذاك ، وإن أبى إلّا أن يَمضُوا معه فأْتنى به ، فإنى أرجو أن نَقْتله ونَقْتل أصحابَه . ونزل خداش تحت ظلّ شجرة ،وخَرج قيسٌ حتى أتى العَبْدىَّ ، فقال له ما أمره خِداش . فأَحفظه وأمر أصحابَه فرَجعوا ، ومَضى مع قيس . فلما طَلع على خِداش ، قال له : اُختر يا قَيس : إمّا أن أُعينك وإما أن أَكْفيك ؟ قال : لا أُريد واحدةً منهما ، ولـكن إن قَتلنى فلا يُفْلِتنَّك . ثم نازَله فطَعنه قيسٌ بالحربَة فى خاصرته فأَنفذها من الجانب الآخر ، فمات مكانَه . فلما فَرغ منه قال له خِداشٌ : إنّا إن فَرَرْنا الآن طَلبنا قومُه ، ولـكن ادخُل بنا مكاناً قريباً من مَقْتله ، فإنّ قومه لا يَظُنون أنك قتلتَه وأقمتَ قريباً منهم ، ولـكنّهم إذا افتقدوه اقتصُّوا أثره ، فإذا وجدوه قتيلاً خَرجوا فى طَلبنا فى كُل وجه ، فإذا يَئسوا رَجعوا . قال : فدخَلا فى داراتٍ من رِمال ، وفُقد العبدىُّ فاقتصّ قومُه أثره ، فوجدوه قتيلاً . فخرجوا يطلبُونهما فى كُل وجه ، ثم رجعوا . فـكان من أمرهم ما قال خِداش . وأقاما بمكانهما أيّاما ثم خَرجا ، فلم يتكلما حتى أتيا منزلَ خِداش ، ففارقه عنده قيسُ بن الخطيم ورَجع إلى أهله .

وهذه الرواية تُفارق الروايةَ الأُولى فى قاتل أبى قَيس وجَدّه .

وقال قيسٌ الأبيات المتقدم ذِكْرها ، من قصيدة طويلة ، منها :

تَذكَّرَ ليلَى حُسنَها وصفاءَها ... وبانتْ فما إن يستطيع لقاءَها
ومِثْلُكِ قدأَصْبيتُ ليست[1] بكَنَّةٍ ... ولا جارةٍ أَفضتْ[2] إلىّ خباءَها
إذا ماا صطبحتُ أربعاً خَطَّ مِئْزَرى ... وأَتبعتُ دَلْوى فى السَّماح[3] رِشاءَها

إعجاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بشعره

وروَى أَنس بن مالك رضى الله عنه قال : جلس رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم فى مجلس ليس فيه إلّا خَزْرجىٌّ ، ثم ٱستنشدهم قصيدةَ قَيس بن الخطيم :

أَتعرفُ رسماً كاطِّراد[4] المَذاهِب ... لِعَمْرةَ وحشاً غيرَ موقِفِ راكبِ

فأَنشَده بعضُهم إيّاها ، فلما بلغ إلى قوله :

أُجالدهم يومَ الحَديقةِ حاسِراً ... كأَنّ يدى بالسَّيفِ مِخْراقُ[5] لاعِبِ

فالتفت إليهم رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم فقال : هل كان كما ذَكر ؟ فشَهد له ثابتُ بن قَيس بن شَمّاس وقال : والذى بَعثك بالحقّ يا رسولَ الله ، لقد خَرج إلينا يومَ سابع عُرْسه عليه غِلالةٌ وملْحفة مُورَّسة[6] فجالدنا كما ذَكر .

استجاد النابغة شعره

وقيل :

قدِمَ النابغةُ الذُّبيانى المدينةَ ، فتقدَّم قيسُ بن الخطيم فجلس بين يدَيْه ، وذلك

---

(١) الكنة : امرأة الابن أو الأخ .

(٢) أفضت إلى خباءها ، أى ليس بينها وبينه ستر .

(٣) خط مئزرى ، أى إنه اختال حتى جرثوبه من الخيلاء . وأتبعت دلوى .. الخ : أى إنه بلغ فى السماح منتهاه .

(٤) المذاهب : جمع مذهب ، وهو جلد تجعل فيه خطوط مذهبة بعضها فى إثر بعض . واطرادها : تتابعها .

(٥) الحديقة : قرية من أعراض المدينة فى طريق مكة . والمخراق : خرقة مفتولة يلعب بها الصبيان ، وهى ما تسمى فى مصر : « الطرة » .

(٦) مورسة : مصبوغة بالورس ، وهو نبت أصفر تصبغ به الثياب .

بعد أن أَنْشد النابغة قصيدةً له[1] ، وقال : ألَا رجلٌ يُنشد ؟ ثم أنشده قيس :

* أتعرف رسماً كاطّراد المَذاهِب *

حتى فَرغ منها . فقال : أنت أشعر الناسِ يا بن أخى . قال حسّان بن ثابت : فدَخلنى منه ، و إنّى فى ذلك لأَجد القُوة فى نَفسى عليهما ، ثم تقدَّمتُ فجلستُ بين يديه ، فقال : أنْشِد ، فوالله إنّك شاعرٌ قبل أن تتكلّم ، وكان يعرفنى من قبل ذلك . فأنشدتُه ، فقال : أنت أشعر الناس .

من جماله

وقيل :

كان قيس بن الخَطيم مَقْرون الحاجبين ، أدعَج العينين ، أحمرَ الشَّفتين، برَّاق الثَّنايا ، ما رأتْه حَلِيلة رجل قطُّ إلّا ذَهب عقلُها .

طلب حسان إلى الخنساء هجاءه فأبت

وقيل :

إنَّ حسّان بن ثابت قال للخَنساء : اُهْجِي قيسَ بن الخَطيم . فقالت : لا أَهجو أحداً حتى أَراه . فجاءتْه يوماً فوجدتْه فى مَشْربة[2] مُلتفًّا فى كِساء له ، فنخستْه برجلها وقالت : قُم . فقام . فقالت : أَدبر . فأَدبر . ثم قالت : أَقبل. فأَقْبل . قال: والله لكأنها تَعْرض عبداً تَشْتريه . ثم عاد إلى حاله ثانياً[3] . فقالت : والله لا أَهجو هذا أبداً .

شعره فى يوم الربيع

وكانت بين الأوس والخَزرج حُروب لم يكُن يومٌ من أيامها أعظمَ من يوم بُعَاث[4] ، وفيه يقول قَيس بن الخَطيم :

« أجالدهم يومَ الحَديقة . . . البيت »

---

(١) له ، أى للنابغة .

(٢) المشربة : الغرفة التى يشرب فيها .

(٣) فى بعض أصول الأغانى : « نائما » .

(٤) بعاث : موضع فى نواحى المدينة ، و به كانت هذه الوقعة .

وإنما كانُوا فى غَيره من الأيّام يترامَوْن بالحجارة ، ويتَضاربون بالخشب . ومن تلك الأيّام اليوم الذى يقال له يوم الرَّبيع[١] . وفى هـذا اليوم يقول قَيسٌ الأبياتَ التى فيها الغناء ، وافتتح بها أبو الفرج أخبار قيس ، وهى :

أَجَـــدَّ بَعمْرة غُنْيانُها ... فتَهْجُرَ أم شأنُنا[٢] شانُها
فإن تُمْسِ شَطَّت بها دارُها ... وباحَ لك اليومَ[٣] هِجْرانُها
فما رَوضةٌ من رِياض القَطا ... كأنّ المَصابيحَ[٤] حَوْذانها
بأَحسنَ منها ولا مُزْنةٌ ... دَلُوحٌ تَكَشَّفَ[٥] إدْجانها
وعَمْرةُ من سَرَوات النِّسا ... ءِ تَنفُح بالمِسْك[٦] أرْدانها

ومنها :

ونحنُ الفوارسُ يومَ الرَّبيـــــع قد عَلِموا كيف فُرْسانُها
حِسانُ الوُجوه حِدادُ السيو ... ف يَبتدِر المجدَ شُبَّانها

وكان هذا اليوم للأوس على الخزرج ، فلذلك أفتخر به قيس . وعَمْرة التى ذَكرها فى شعره ، هى عَمْرة بنت صامت بن خالد ، زوجة حسّان بن ثابت . وكان حسّان ذكر ليلَى بنت الخَطيم فى شعره ، فكافأه قيس بذلك .

حسان وليلى أخت قيس

ذُكر أن حسّان بن ثابت مرّ بليلى بنت الخَطيم ، وقيس أخوها بمكة حين خرجوا يطلبون الحِلْف فى قريش ، فقال لها حسان : اظْعَنى فالْحَقى بالحىّ فقد ظَعنوا ، وليت شعرى ! ما خَلَّفكِ ؟ وماشأنُك ؟ أقلَّ ناصرُك أم راث[٧] رافدُك ؟ فلم تُكلِّمه وشتمتْه نساؤها . فذكرها فى شعره يوم الرَّبيع الذى يقول فيه حسّان :

(١) الربيع : موضع من نواحى المدينة .
(٢) جد : استمر . وغنيانها : استغناؤها . وشأننا شأنها ، أى أم هى على ما نحب .
(٣) شطت : بعدت . وباح : ظهر .
(٤) الحوذان : نبات سهلى حلو طيب الطعم .
(٥) دلوح : ثقيلة . وإدجانها : سوادها .
(٦) الأردان : ما يلى الذراعين جميعاً والإبطين من الكمين . (٧) راث : أبطأ .

لقد هاج نفسَك أشجانُها وعاودها اليومَ[1] أديانُها
تذكَّرتَ ليلى وأنَّى بها إذا قُطِّعتْ منك[2] أقرانها
وحَجَّل فى الدَّار غِرْبانُها وخَفَّ مِن الدار سُكّانها
وغَيَّرها مُعصِراتُ الرِّياح وسَحُّ الجَنُوب وتَهْتَانها
مَهاةٌ من العِين تَمْشى بها وتَتْبَعها ثَمَّ غِزْلانها
وقفتُ عليها فساءلتُها وقد ظَعن الحىُّ : ما شانها
فعيَّتْ وجاوَبنى دونَها بما راع قلبىَ أعْوانها

وهى طويلة .

وعَمرة بنت رَواحة هى أُمُّ النُّعمان بن بَشير .

غناء عزة الميلا للنعمان بشعره

وقد ذُكر أن النُّعمان بن بَشير قَدِم المدينةَ فى أيام يزيدَ بن مُعاوية وابنِ الزُّبير فقال : والله لقد أَخْفقتْ[3] أُذناى من الغناء ، فأَسْمِعونى . فقيل له : لو وجَّهت إلى عَزّة فإنها مَن قد عَرَفْتَ . فقال : إى وربِّ البِنْية ، إنها لَمن تَزيدُ النفس طِيباً ، والعقلَ شَحْذاً ، أُبعثوا إليها عن رسالتى ، فإنْ أبتْ صِرْنا إليها . فقال له بعضُ القوم : إن النُّقْلة تشتدّ عليها لِثَقل بَدنها ، وما بالمَدينة دابّةٌ تحملها . فقال النُّعمان : وأين النَّجائب عليها الهَوادج ! فوجَّه إليها بِنَجيب . فذكرتْ علَّة . فلما عاد الرسولُ إلى النُّعمان بن بشير ، قال لجليسه : أنت كنتَ أَخْبَرَ بها ، قُوموا بنا . فقام هو مع خواصّ أَصحابه حتى طَرقوها . فأَذِنت وأكرمتْ واعتذرتْ . فقَبل النُّعمانُ عُذْرَها ، وقال : غنِّنى . فغنَّته :

أجَدّ بعَمْرةَ غُنْيانُها فتهجُرَ أَم شأنُنا شانها

فأُشير إليها أنّها أُمه . فسكتتْ . فقال : غنِّنى ، فوالله ما ذَكرتِ إلّا كرماً

(١) الأديان : جمع دين ، وهو الداء . يريد : حبه القديم .
(٢) الأقران ، الحبال ، الواحد : قرن . (٣) أخفقت : أوحشت ، لطول العهد .

وطِيباً . لا تُغنِّينى سائرَ اليوم غيرَه . فلم تزل تُغنِّيه هذا اللحنَ فقطْ حتى انصرف .

قضاء النعمان بين امرأة وزوجها

وقيل : إن النُّعمان بن بَشير لما انصرف من منزل عَزَّة ، إذا امرأة بالباب منتظرة له . فلمّا خَرج شكتْ إليه غِشْيان زَوجها إيّاها . فقال لها النُّعمان بن بَشير : لأَقْضينّ بينكما بقضيّة لا تُردّ علىّ : قد أُحلّ له من النّساء مَثْنى وثُلاثَ ورُباع ، فله مَرّتان بالنّهار ومَرّتان[1] باللّيل .

شعر له وخبر الحرب بينهم وبين بنى جحجبى

ومن شعر قَيس بن الخطيم الذى يُغنَّى فيه قولُه :

حَوْراء مَمْكورةٌ منعَّمةٌ كأنما شفّ وجهها[2] نُزُفُ
تَنامُ عن كُبْرِ شأنها فإذا قامتْ رُويداً تكاد تَنْقَصِف

وهذا الشعر من قَصيدة يقولها قَيسٌ فى حربٍ كانت بينهم و بين بنى جَحْجَبى و بنى خَطْمة[3] ولم يَشْهدها قَيس ، ولا كانت فى عَصره ، و إنما أَجاب بها شاعراً يقال له : دِرْهم بن يزيد[4] .

وخبر هذه الحرب أن رجلاً من غَطفان من بنى ثَعلبة بن سَعد بن ذُبيان بَعث إلى يَثْرب بفرسٍ وحُلَّة مع رجل من غَطفان ، وقال : ادْفعهما إلى أَعَز أَهل يَثْرب — وقيل : إنّ الباعث بهما عبدُ يالِيل بن عمرو الثَّقفى . وقيل : بل عَلْقمة ابن عُلاثة — فجاء الرسولُ بهما حتى وَرد سوق بنى قَيْنُقاع ، فقال ما أُمر به . فوَثب إليه رجلٌ من ثعلب[5] كان جاراً لمالك بن العَجْلان الخَزْرجىّ ، يقال له ، كَعْب الثَّعلبى ، فقال : مالك أعزُّ أهل يثرب . وقام رجل آخر فقال : بل أُحَيحة ابن الجُلَاح أعزُّ أهل يثرب . وكثُر الكلام . فقَبِل الرسولُ الغَطفانىُّ قولَ الثَّعلبىّ

(١) فى بعض أصول الأغانى : « امرأتان . . . وامرأتان » .
(٢) ممكورة : مدمجة الخلق . ونزف ، بالضم وسكن للشعر : خروج الدم . وقيل ، هو بياض اللون مع صفرة . . وفى بعض أصول الأغانى : « ترف » .
(٣) فى بعض الأصول : « حجناء وبنى خطمة » . (٤) فى الأصل : « درهم بن زيد » .
(٥) فى الأصل : « تغلب » . وفى بعض أصول الأغانى : « غطفان » .

الذى كان جاراً لمالك بن العَجْلان ودفعهما إلى مالك . فقال كعب : ألم أقل لكم إن حليفى أعزُّكم وأفضلُكم ، فغضِب رجلٌ من بنى عمرو بن عَوف يقال له : سُمَير ، فرصد الثَّعلبيَّ حتى قتله . فأُخبر مالك بذلك، فأرسل إلى بنى عمرو بن عَوف ابن مالك بن الأَوْس : إنّكم قد قتلتُم منّا قتيلا ، فأرسلوا إلينا بقاتله . فلمّا جاءهم رسولُ مالك ترامَوْا به . فقالت بنو زيد : إنما قتلتْه بنو جَحْجبى . وقالت بنو جَحجبى : إنما قتلتْه بنو زيد . ثم أرسلوا إلى مالك : إنه قد كان فى السوق التى قُتل فيها صاحبُكم ناسٌ كثير ، ولا يُدرى أيّهم قَتله . فأمر مالكٌ أهلَ تلك السوق أن يتفرّقوا ، فلم يَبْق فيها غيرُ سُمَير وكَعب . فأرسل مالك إلى بنى عمرو ابن عَوْف بالذى بَلغه من ذلك ، وقال : إنما قَتله سُمير ، فأَرْسلوا به إلىَّ أقتلْه . فأرسلوا إليه : إنه ليس لك أن تقتُل سُميراً بغير بيّنة ، وكثُرت الرُّسل بينهم فى ذلك : يسألهم مالك أن يُعطوه سُميرا ، ويأبَوْن أن يُعطوه إياه . ثم إنّ بنى عمرو بن عَوف كرهوا أن يُنْشِبوا بينهم وبين مالك حرباً ، فأرسلوا إليه يَعْرِضون عليه الدِّية ، فقبلها . فأرسلوا إليه : إنّ صاحبكم حليف وليس لكم فيه إلا نصفُ الدِّية، فغضب مالك وأبى أن يأخذ فيه إلّا الدية كاملة أو يقتل سُميرا . فأَبت بنو عمرو بن عوف أن يُعْطوه إلّا ديةَ الحليف ، وهى نصف الدِّية ، ثم دعَوْه أن يحكِّم بينهم وبينه عمرو بن أُمرىء القيس ، أحد بنى الحارث بن الخزرج، وهو جدّ عبد الله بن رَواحة رضى الله عنه ، ففعل . فانطلقوا حتى جاءوه فى بنى الحارث بن الخَزْرج، فقضى على مالك بن العَجْلان أنه ليس له فى حليفه إلا دية الحليف ، وأبى مالك أن يرضَى بذلك، وآذن بنى عمرو ابن عَوف بالحرب ، واستنصر قبائلَ الخزرج . فأبت بنو الحارث بن الخزرج أن تنصُره غضباً حين ردّ قضاء عمرو بن أُمرىء القيس . فقال مالك يذكُر خِذْلان بنى الحارث بن الخزرج له وحَدَبَ بنى عمرو بن عوف على سُمَير ، ويحُضّ بنى النّجار على نُصرته :

إنّ سُمـيراً لدى[١] عَشيرته قد حَدِبوا دونه وقـد أنِفُوا
إن يكن الظنُّ صادقاً ببنى النّـ ـجار لا يَطْعَموا الذى[٢] عُلِفوا
لا يُسْلِمـونا لمعشرٍ أبداً ما دام منّا ببَطْنها[٣] شَرَف
لـكنْ مَـوالىَّ قد بدا لهمُ رأىٌ سِوَى ما لدىّ أو ضَعفُوا
بين بنى جَحْجبى و بين بنى زَيْدٍ فأنّى لجـارِكَ التَّلَف
يمشُون فى البَيْض والدُّروع كما تمشى جمالٌ مَصاعبٌ[٤] قُطُف
كما تَمشّى الأُسود[٥] فى رَهَج الْـ موت إليهم[٦] وكلُّهم لَهِف

وقال دِرْهم بن يزيد، أخو سُمير، فى ذلك:

يا قومِ لا تقتلوا سُمَـيراً فإنّ القتلَ فيه البَـوارُ والأَسفُ
إنْ تقتلُوه ترِنَّ[٧] نِسْوتُـكم على كريمٍ ويَفْزَعِ السَّلَف
إنِّى لعمرُو الذى يَحُجّ له النّـ ـاس ومَن دون بَيته[٨] سَرِف
يَمينُ بَرٍّ بالله مُجتهِـدٍ يَحْلِف إن كان ينفَع الحَلِف
لا يَرفع العبدَ فوق سُـنَّته ما دام منّا ببَطْنهـا شَرَف

وقال دِرْهم فى ذلك:

يا مالِ لا تَبغِين ظُلامَتنـا يا مالِ إنّا مَعاشِرٌ أُنُفُ
يا مالِ والحقُّ إن قَنِعْتَ به فينا وفيـه لأمرنا نَصَف

(١) فى بعض أصول الأغانى: «أرى».
(٢) علف الضيم: أقر به. (٣) الشرف: الشريف.
(٤) البيض: جمع بيضة، وهى ما يلبس على الرأس كالخوذة، للوقاية فى الحرب. والمصاعب: جمع مصعب، وهو الفحل الذى لم يركب ولم يمسه حبل حتى صار صعباً. والقطف: السريع الخطو.
(٥) الرهج: الغبار. (٦) فى بعض أصول الأغانى: «إليه» مكان «إليهم».
(٧) ترن: ترفع أصواتها بالبكاء.
(٨) سرف: على ستة أميال من مكة، تزوج به رسول الله صلى الله عليه وسلم ميمونة بنت الحارث، وهناك بنى بها، وهناك توفيت.

إنّ سُمَيراً[1] عبدٌ فخُذ ثَمناً فالحقُّ يُوفَى به ويُعْتَرف
ثم اعْلمنْ إنْ أردتَ ضَيْم بنى زَيدٍ فإنِّى ومَن له الحَلِف
لأَصْبَحْن دارَكم بذى لَجَبٍ جَوْنٍ له من أمامِه[2] عَزَف
البَيْض حِصْنٌ لهم إذا فَزِعوا وسابغاتٌ كأنّها[3] النّطَف
والبيضُ قد ثُلِّمت مَضاربُها بها نفوسُ الكُماةِ تُخْتَطف
كأنّها فى الأَكُفّ إذ لَمَعتْ وَمِيض برقٍ يَبْدو وَيَنكشِف

وقال قَيسُ بن الخَطيم فى ذلك ، ولم يُدْركه ، وإنما قاله بعد انقضاء هذه الحرب بزمان :

رَدَّ الخَليطُ الجِمالَ فانْصرفوا ماذا عليهم لو أنهم وقَفُوا
فيهم لَعُوب العِشاء آنسةُ الـ ـدَّلِّ عَرُوب[4] يَسُوءها الخُلُف
حَوْراء جَيْداء يُسْتضاء بها كأَنها خُوطُ بانةٍ[5] قَصِف

ومنها البيتان اللذان تقدّم ذكرهما . ومنها :

نَفْلى بحَدّ الصَّفيح هامَهمُ وفَلْيُنا هامَهم بها[6] عُنُف
إنّ بنى عَمِّنا طَغَوْا وبَغَوْا ولَجَّ منهم فى قومِهم سَرَف

فقال حسّان بن ثابت ، ولم يُدْرك ذلك ، يَرُدّ على قيس :

ما بالُ عَيْنيك دَمْعُها يَكِفُ مِن ذِكر خَوْدٍ شَطَّت بها[7] قَذَفُ

---

(١) فى بعض أصول الأغانى : « بجير » .
(٢) العزف ، بالفتح ، وحرك للشعر : الصوت .
(٣) النطف ، جمع نطفة ، وهى اللؤلؤة الصافية اللون وقطرة الماء . تشبه بها الدروع لصفائها .
(٤) لعوب العشاء : تسمر مع السمار وتلهو . والعروب : الحسناء المتحببة إلى زوجها .
(٥) حوراء : ذات حور ، وهو سعة العينين . وجيداء : طويلة العنق . والخوط : الغصن .
(٦) فلاه بالسيف : علاه . والصفيح : السيوف العريضة ، الواحد : صفيحة . وعنف ، يريد أن قتلنا إياهم عنف منا لأنهم قومنا وبنو عمنا .
(٧) قذف : بعيدة .

بانتْ بهـا غَرْبةٌ تؤُمّ بهـا أرضاً سِوانا والشَّكل مُخْتَلِفُ
ما كنتُ أدْرى بوَشْك بَيْنهمُ حتى رأيتُ الحُـدوج تَنْقَذف
دَعْ ذا وعَـدِّ القَريض فى نَفَر يَرْجُونمَدْحى ومَدْحِيَ الشَّرَف
إن تَدْعُ قَومى للمَجْـد تَلْفِهمُ أهل فَعَالٍ يَبْـدو إذا وُصِـفوا
إنّ سُمَيراً عبـــدٌ طَغَى سَفَهاً ســاعده أعبُـدٌ لهم[1] نَطَف

ثم أرسل مالكُ بن العَجْلان إلى بنى عمرو بن عَوْف يُؤْذنهم بالحرب ويَعدهم يوماً يلتقُون فيـه ، وأمر قومه فتهيَّأوا للحرب ، وتحاشـد الحيَّان بعضهم لبعض ، وكانت يَهود قد حالفتْ قبائل الأَوس والخزرج ، إلّا بنى قُريظة و بنى النَّضير ، فإنهم لم يُحالفوا أحداً منهم حتّى كان هذا الجمع ، فأرسلت إليهم الأوسُ والخزرج ، كُلٌّ يدعوهم إلى نفسه ، فأَجابوا الأَوس وحالفوهم ، والتى حالفت قُريظةُ والنضير من الأوس أوس الله ، وهى خَطْمةُ وواقِف وأُميةُ ووائل ، فهذه قبائل أوس الله . ثم زَحف مالكٌ بمن معـه من الخزرج ، وزحفت الأوس بمن معها و بحُلفائها من قُريظة والنَّضير ، فالتقَوْا بفضاء كان بين سالِم وقُباء ، فـكان أوَّلَ يوم التقَوْا فيه . فاقتتلوا قِتالاً شـديداً ، ثم انصرفوا وهم مُنْتَصفون جميعاً . ثم التقَوْا مرةً أُخْرى عندأُطم بنى قَيْنُقاع . فاقتتلوا حتى حَجز الليلُ بينهم ، فـكان الظَّفر يومئذ للأَوس على الخزرج . فقال أبو قَيْس بن الأَسْلت فى ذلك :

لقـد رأيتُ بنى عَوْفٍ[2] فما وَهَنوا عنـد اللِّقـاء ولا هَمُّوا بتـكذيبِ
ألا فِـدًى لهمُ أُمِّى وما ولدتْ غَداةَ يَمْشُون إرقالَ[3] المَصاعيب
بكُل سَلْهبةٍ[4] كالأَيْم[5] نامِيـةٍ وكُلِّ أَبيضَ ماضِى الحدِّ[6] مَخْشوب

(١) النطف : القرط . (٢) فى بعض أصول الأغانى : « عمرو » .
(٣) الإرقال : ضرب من العدو . والمصاعيب ، أراد « مصاعب » جمع مصعب ، وهو الفحل الذى لم يمسسه حبل ولم يركب ، فزاد الياء .
(٤) السلهبة : الطويل من الخيل ، والأيم : الثعبان الذكر ان من الحيات ، وهى التى لاتضر أحدا .
(٥) فى بعض أصول الأغانى : « ماضية » مكان « نامية » . (٦) مخشوب : مصقول .

فلبثت الأوسُ والخزرج مُتحاربَيْن عِشْرين سنةً فى أمر سُمير ، يتعاودون القِتالَ فى تلك السِّنين . وكانت لهم فيها أيّام ومواطن لم تُحفظ . فلما رأت الأوس طُول الشَّر ، وأنَّ مالكاً لا يَنْزِع[1] ، قال لهم سُويد بن صامت الأوسىّ ، وكان يُقال له الكامل فى الجاهليّة ـ وكان الرَّجلُ عند العرب إذا كان شاعراً شُجاعاً كافياً سابحاً رامياً سمَّوه الكاملَ . فكان سويد أحد الكملة — : يا قومى، أرْضُوا الرَّجل من حليفِه . ولا تُقيموا على حَرب إخوتكم فيقتلَ بعضُكم بعضاً ، ويطمع هذا فيكم غيرَكم ، وإن حملتُم على أنفسكم بعضَ الحَمْل . فأرسلت الأوسُ إلى مالك ابن العَجْلان يَدْعونه إلى أن يحكُم بينه وبينهم ثابتُ بن المُنذر بن حَرام ، أبو حسّان ابن ثابت . فأجابهم إلى ذلك . فخرجوا حتى أتوا ثابت بن المُنذر ، وهو فى البئر التى يقال لها سُمَيحة[2] . فقالوا : إنَّا قد حكّمناك بيننا . فقال : لا حاجةَ لى فى ذلك . قالوا : ولِمَ ؟ قال : أخاف أن تَرَدُّوا حُكمى كما رددْتُم حكم عَمرو بن اُمرىء القَيس . قالوا : فإذن لا نَرُدّ حُكْمَك ، فاحكُم بيننا . قال : لا أحكم بينكم حتى تُعطونى مَوْثقاً وعهداً لتَرْضَوُنّ بحُكمى وماقضيتُ ولَتُسْلِمُنّ له . فأعْطوه على ذلك عُقودهم ومواثيقَهم ، فحَكم أن يَدُوا حليفَ مالك ديةَ الصَّريح[3] ، ثم تكون السُنةُ بعده على ما كانت عليه : الصَّريحُ على ديته والحليف على ديته ، وأن تُعَدّ القَتْلى الذين أصاب بعضُهم من بعض فى حربهم ، ثم يكون بعضٌ ببعض ، ثم تُعطى الدية لمن كان له فَضل فى القَتْلى من الفريقين . فرَضى مالكٌ بذلك وسلّمت الأوس ، وتفرقوا على أن على بنى النّجار نِصْفَ دية جارِ مالك معونةً لهم ، وعلى بنى عمرو بن عوف نِصْفها . فرأت بنو عمرو بن عَوف أنهم لم يُخْرِجوا إلا الذى كان عليهم . ورأى مالك أنه قد أدرك ما كان يطلُب . ووُدى جارُه دية الصَّريح . ويقال : بل الحكم المُنْذر أبو ثابت .

(١) لا ينزع : لا يكف . (٢) سميحة ، بالتصغير ، وبفتح السين : بئر بالمدينة .
(٣) الصريح : الرجل الخالص النسب .

مقتل قيس بن الخطيم

قتلته الخزرج فقتل به قومه أبا صعصعة

لمّا هدأت الحربُ بين الأوس والخزرج ، التى كانت فى أيّام قَيس ، تذكّرت الخزرجُ قَيس بن الخطيم ونِكايَته فيهم ، فتآمروا وتواعدوا قتله ، فخرج عشيةً من منزله بين مُلاء تيْن يُريد مالاً له ، حتى مَرّ بأُطم[1] بنى حارثة . فرُمى من الأُطم بثلاثة أسهم ، فوقع أحدُها فى صَدره ، فصاح صيحةً أَسْمعها رهطَه ، فجاءوا فحملوه إلى مَنزله . فلم يَرَوْا له كُفئاً إلّا أبا صَعصعة يَزيدَ بن عَوْف بن مُدْرك[2] النَّجّارىّ . فاندسّ إليه رجلٌ حتى اُغتاله فى منزله ، فضرَب عُنقه واُشتمل على رأسه ، فأَتى به قيساً وهو بآخر رَمق ، فألقاه بين يديه وقال : يا قيس ، قد أدركتُ بثأرك . فقال : عَضَضْتَ بأَيْرَ أبيك إن كان غيرأبى صَعصعة ! قال : هو أبو صَعصعة ، وأراه الرَّأسَ . فلم يلبث قَيس بعد ذلك أن مات .

وكان مَقْتلهُ قبل هِجرة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم إلى المدينة .

---

(١) الأطم : الحصن . (٢) فى الأصل : « بن مبدول » .